مد الموج

محمد جبريل



مد المـــــوج

تبقيعات نثرية

محمد جبريـــــل

تنبثق الصور كالومضات ، ما تلبث أن تختفى ، كمدّ البحر تمتصه رمال الشاطئ . شخصيات وأحداث ، تلتقط الذاكرة أقلها ، ويغيب أكثرها كالومضات المتلاشية ، أو كاحتواء الرمال لمد الموج ..

هذه محاولة لتسجيل ما أفلحت الذاكرة فى التقاطه من توالى الومضات والأمواج ، فى تلاحقها الذى لا ينتهى . لم أضف ، ولم أحذف ، وإن قدمت وأخّرت بما يشكل ملامح متتالية من سيرة حياة ..

م . ج

ـ ١ ـ

المشهد ــ كما أتذكره ــ وقفتى فى الصالة ، تتوسط الحجرات الثلاث . الملامح باهتة ، غائمة ، واللحظة مقطوعة الصلة بما قبلها وما بعدها ..

متى صحوت من النوم ؟ وهل ناديت على أمى ، فظل الصمت سادراً ؟ وكيف نزلت من السرير ، فتركت الحجرة لأقف وسط الصالة ، تحوطنى رمادية الغروب الشفيفة ، وهى تتسلل إلى داخل الشقة ، والصمت يواجهنى بما يخيفنى..

عرفت ــ بعد سنوات ــ أن الأسرة صحبت أبى إلى محمد عبد الوهاب وفاتن حمامة فى " يوم سعيد " ..

العقدة ــ من يومها ــ فى داخلى ..

أخاف الظلام ، وأحب " الونس " ، حتى لو لم يكن فى سمعى غير أنفاس الصمت .

— ٢ —

كنا نترقب موعد قدوم جدى من دمنهور . يحمل على صدره أكياس فاكهة ، ويوزع علينا نقوداً صغيرة ، نشترى بها شيكولاتة من حلوانى على ناصية شارعى إسماعيل صبرى والتتويج ..

قال أخى الأكبر :

ــ أعلى الماسورة فى البلكونة المطلة على سيدى على تمراز يوجد عش للعصافير ..

قال جدى مترفقاً :

ــ يا بختكم .. لابد أنها تغرد كل صباح ..

قالت أختى :

ــ هاتها لنا ..

سأل جدى :

ــ ماهى ؟..

قال أخى :

ــ العصافير .. هاتها لنا ..

قال جدى :

ــ سماع صوتها أجمل ..

قلت :

ـــ ماما رفضت .. وأنت ترفض .. سنطلع إليها بالسلم ونحضرها ..

لاحظ جدى أمارات التصميم فى عيوننا . عاد بالسلم الخشبى من المطبخ . أسنده إلى جدار البلكونة . صعد عليه حتى حاذى رأسه العش . أمسكنا الأنفاس ، ومددنا أيدينا لتلقى العصافير . طارت العصافير فى المدى ..

صحنا :

ـــ أنت هششت عليها فطارت ..

وهو يحتضننا بنظرة دافئة :

ـــ فى الصباح تصحون على غنائها ..

ولون صوته بنبرة محذرة :

ـــ إذا حاولتم أخذها فستطير ولن تغنى لكم .

ـ ٣ ـ

نفثات الخوف تلامس وجهى . أحدّق فى الظلام والصمت . أتأكد من أن كل شئ فى موضعه : أخى النائم بجوارى ، وباب الحجرة الموارب ، والكومودينو ، والكرسيان المتقابلان فى فراغ الوسط ، والنافذة الخشبية ، والضوء الخافت من الصالة يضفى على ذلك كله ضبابية شفيفة ..

أشعر بحركة داخل الحجرة ، أو أتوهمها . أسدل اللحاف على رأسى ، لا أترك سوى منفذ لأنفى ، فلا أشعر بالاختناق . أنفاسى ـ منذ طفولتى ـ ألتقطها بصعوبة ، ربما حساسية الأنف أو الصدر . أفكر فى أن أوقظ أخى ، أو أجرى إلى حجرة أبى وأمى . تترامى – فتنقذنى – تسابيح الرجل . لا أعرفه ، ولم أره فى النهار ، ولا فى الليل ، وإن رسمت له فى مخيلتى صورة شيخ أبيض اللحية ، على رأسه عمامة ، ويرتدى قفطاناً مما يرتديه طلبة المعهد الدينى بالمسافرخانة ..

يبدو الصوت بعيداً ، فأخمن أنه فى شارع الأباصيرى قادماً من سيدى المرسى ، أو فى شارع رأس التين قادماً من

سيدى عبد الرحمن . يقترب ، فيبدو فى ميدان " الخمس فوانيس " ، أو تحت البيت ..

يؤنسنى تماماً ، فأرفع اللحاف ، وأغمض عينى ، وأروح فى النوم ..

ـ ٤ ـ

كنت فى سن الطفولة الباكرة ـ إن جاز التعبير ـ حين أحسست بشئ يتدلى من بين ردفىّ . مددت أصابعى ، فلامست النعومة الساكنة . كانت أمى مشغولة فيما لا أذكره ـ وكانت دائمة الانشغال ! ـ لما همست فى ارتباك :

ـ ماما .. أنا روحى بتطلع ..

أظهرت أمى فزعها فى بحلقة العينين ، وخبطة راحة اليد على أعلى الصدر ..

ـ ليه بتقول كده ؟!

أدرت جسدى ، وقلت :

ـ شوفى ..

أغمضت عينيها ، وتنهدت ، ثم قالت من خلال بسمة مشفقة :

ــ روح التواليت يا حبيبى ..

أخى الأكبر ــ الذى تابع الحوار بين أمى وبينى ــ أقعى فى مواجهتى ، ليشاهد طلوع الروح فى جلستى على التواليت " البلدى " ..

صرخ فى فزع :

ــ تعبان !..

استقبلت صرخته بصرخة أعلى . فأتحت للدودة الشريطية أن تسقط فى أرضية دورة المياه ..

تدلت الدودة الطويلة ، الميتة ، على طرف عصا أمسكت بها أمى ، وراحت تعرضها على جاراتها ، وتعيد وتزيد ، فيما رويته لها عن طلوع الروح ..

ظللت فى وقفتى داخل حجرة القعاد . أنظر من الباب الموارب ، وأعانى الخجل .

ظلت الصورة غائمة ، حتى تعرفت ــ فيما بعد ــ إلى التفصيلات التى غابت عن وعيى ، وما لم أستطع تذكره ..

كنا قد ألفنا الغارات الجوية ، وإطفاء الأنوار ، وأضواء الكشافات ، وأصوات المدافع المضادة للطائرات.. لكننا صرخنا ــ فى الليلة السابقة ــ لصوت انفجار هائل ، أكد أبى أن مصدره قريب ..

أذكر سيارة النقل تقف أمام البيت ، والظلمة تلف كل شئ ، ما عدا أضواء باهتة من النوافذ وأبواب الدكاكين المطلية باللون الأزرق . كنا نقف ــ أختى وأخى وأنا ــ على الرصيف ، نتأمل صعود عم أحمد البواب إلى شقتنا فى الطابق الثالث . تسلمه أمى ما ترى أننا نحتاجه فى دمنهور ــ المدينة التى نهاجر إليها ــ وأبى يدفع بما ينزل به عم احمد إلى داخل السيارة . جرت دجاجات فى الظلمة المحيطة . لم يحاول أبى اللحاق بها ، وإن عاود التأكد من إغلاق القفص جيداً ..

حملت أمى ــ فى نزولها ــ حاجياتها الشخصية ..

قال أبى وهو يشمل البيت بنظرة حزينة :

ـــ هل تأكدت من إغلاق باب الشقة ؟..

هزت أمى رأسها ، دلالة أنها فعلت ..

أشار أبى إلى سائق سيارة النقل . تأكد من جلوسنا داخل السيارة الصغيرة . جلس إلى جانب خالى حسن فى المقعد الأمامى ، وتنهد :

ـــ طريق السلامة ..

ـــ ٦ ـــ

العيد ..

كنا نشم رائحته قبل أيام من قدومه . يصحبنا أبى إلى شارع الميدان . نشترى " النقل " وملابسنا الجديدة ، ونضع الملابس بجوارنا على السرير . نصحو على أصوات التكبيرات فى جامع سيدى على تمراز . نطل من النافذة الخلفية على المصلين وهم يفترشون ميدان الخمس فوانيس المواجه للجامع ..

تنتهى الصلاة ، فيحل فى الساحة الواسعة سوق العيد : المراجيح والحاوى والأراجوز وصندوق الدنيا والنشان والزحام الذى يتزايد حتى يملأ الميدان ..

تعيننا أختى التى تكبرنى بخمس سنوات على ارتداء الثياب الجديدة ، ونقفز درجات السلم . يطلب أخى أن أظل بالقرب منه كى لا أتوه ..

ثم نخترق الزحام ..

ـ ٧ ـ

زرنا أمى فى مستشفى دار اسماعيل الملاصقة لمقابر العامود . نصح جارنا الطبيب فى الطابق الأسفل بأن تنتقل إلى المستشفى الذى يعمل به ، فيسهل عليه رعايتها ..

جلسنا ــ أختى وأخى وأنا ــ فوق السرير ، وجلست خالتى على طرفه . مسّدت أمى رءوسنا بيدها ، ونصحتنا ــ بنبرة تصعّب ــ ألاّ نهمل المذاكرة ، وطالبت أختى بأن تكون ست بيت فى غيابها ، ورجت خالتى أن تعتنى بنا ..

بدت أمى طيبة على غير ما ألفناه . كانت تضربنا لأقل خطأ ، وتصر على أن نذاكر حتى موعد النوم ، وترفض نزولنا للعب فى الشارع الخلفى ، وإن كانت تحرص على أن نجلس بجوار الراديو لسماع بابا صادق ، ثم بابا شارو فى موعد برنامج الأطفال ..

داخلنا اطمئنان بأن أمى على سرير المستشفى ، تختلف عن أمى التى كانت تحيا معنا فى البيت . علت أصواتنا بالإلحاح والتعليقات والأسئلة التى لا تنتهى ..

سألت أمى أخى وهى تشير إلى البرتقالة فى يده :

ــ من أعطاها لك ؟..

أشار بيده إلى زائر السيدة الراقدة على السرير المجاور..

بآخر ماعندها ضربته أمى على وجهه :

ــ ألم أقل لكم لا تأخذوا شيئاً من أحد ؟!

لزمنا الصمت ، وأماكننا . أدركنا أن أمنا فى البيت هى أمنا التى نجلس حولها الآن ..

ـ ٨ ـ

أمسكت بالسن بين السبابة والإبهام . وقفت فى البلكونة المطلة ــ من ناحية ــ على شارع رأس التين ، ومن الناحية المقابلة ، على امتداد شارع إسماعيل صبرى حتى طريق الكورنيش ..

تطلعت إلى الشمس فى توسطها للسماء وقت الظهيرة ، وأنا أستعيد العبارة التى حفظتها من أمى : يا شمس يا شموسة .. خدى سنة الحمار .. وهاتى سنة العروسة ..

أبديت انزعاجى واحتجاجى فى البداية ، لأنى لست حماراً فتأخذ سنتى المكسورة ما سمته أمى بها ..

قالت :

ــ هذه مجرد عبارة نقولها لتعطينا الشمس سناً أجمل من السن المكسورة ..

ثم وهى تسم صوتها بجدية :

ــ أنت رجل .. فهل ترضى بسن العروسة ؟

كررت العبارة ، حتى استقامت حروفها فى فمى تماماً . حفظتها ، فاطمأننت إلى أنى لن أخطئ قولها ..

قذفت بالسن فى وجه الشمس ..

غابت فى اشتداد الضوء ، فأدركت أن الشمس التقطتها..

ظللت ــ فى الأيام التالية ــ أتحسس موضع السن المنزوعة : هل جاءت السن التى تمنيتها ؟ هل تشبه سن بنت عمتى وديدة ، يسرقنى جمال فمها وهى تتكلم ؟ أو لا تأتى السن ، فأصبح فى هيئة أم بركات بائعة الخبز حين تداعب بلسانها موضع السن الضائعة ؟ هل ..

ثم نسيت الأمر تماماً .

ــ ٩ ــ

كانت عودتى ــ تلك الليلة ــ من جامع سيدى على تمراز ، آخر عهدى بالصلاة منفرداً ، حتى كبرت ..

قال لنا الإمام ــ فى درس المغرب ــ إن السلام على اليمين ، وعلى اليسار ، فى نهاية الصلاة ، إنما يوجه إلى

الملكين اللذين يرافقان المرء طيلة حياته . يحصيان تصرفاته وأقواله وما يفد إلى خاطره ..

توضأت ، ونويت الصلاة . تذكرت ــ عقب السجدة الأولى ــ أنى لست وحدى . الملاكان عن يمينى ، وعن يسارى ، موكلان بتسجيل كل ما أفعله من حسنات وسيئات ..

تلفت حولى ، متوقعاً أنى سأراهما ..

غلبنى الخوف ، فتركت الوحدة ..

ــ ١٠ ــ

كنت قد اتخذت قرارى ، وأمى تلبسنا أغطية المخدات . تأكدت من بلوغ الأغطية صدورنا ، فلا نتعرّى أثناء النوم . ثم أسدلت اللحاف علينا ، وتأكدت من إغلاق النافذة ، وأطفأت النور :

ــ تصبحوا على خير !..

نزعت الغطاء من جسدى . ثم أسدلت اللحاف ثانية ، ونمت ..

فوجئت ـــ عندما صحوت ـــ بأنى داخل غطاء المخدة ، وأمى واقفة على باب الحجرة ، تحتضننى بنظرة مشفقة :

ـــ حتى غطاء المخدة تعريت منه فى أثناء نومك !

ـــ ١١ ـــ

كنا ننتظر قدوم جدى من دمنهور ليروى لنا الحواديت . نجلس حوله على الكليم الأسيوطى ، فى حجرة القعاد المطلة على الكورنيش . ننصت ، ونسأل ، ونطلب حواديت أخرى ..

اختلطت حواديت جدى فى رأسى وتشابكت : ست الحسن والشاطر حسن والسفيرة عزيزة والبساط السحرى وجزيرة الواق واق ومعروف الإسكافى والسندباد البحرى وياست يا ستنا ياللى قصرك أعلى من قصرنا .. ما عندكيش عنقود عنب للعليل اللى عندنا ..

حكاية وحيدة ظللت أستعيدها ، وأتخيلها : الرجل الذى حملت ساقه بدلاً من بطن زوجته . كيف تبدو الساق الحبلى ؟.. وكيف يمشى الرجل ؟..

لما حذرتنى أمى من تناول الطعام وأنا واقف ، حتى لا ينزل الطعام فى ساقى ، استعدت حدوتة جدى عن الرجل وساقه الحبلى ..

قلت لأخى الأكبر :

ــ قلت لى إن أمى ولدتنا من بطنها .. هل هذا هو ما يحدث لكل الأمهات ؟..

ــ ١٢ ــ

وأنا أهم بدخول باب البيت ، فاجأتنى الصور الموحدة ، المتجاورة ، الملصقة على جدران بيتنا ..

عدت إليها ، وأطلت التأمل ..

رجل يرتدى الزى العسكرى ، وسيدة غائبة الملامح ، قتلا ، وعلقا من أقدامهما ، فانحسر فستان السيدة عن ساقيها ..

قيل لى إن الرجل هو موسولينى ، والمرأة هى كلارا بياتشى ..

لم أدقق فى الاسمين . ولم أعرف حكايتهما إلاّ بعد سنوات .. لكن الصورة ظلت نقطة البداية فى رفضى لعمليات الإعدام مهما تكن طبيعة الجرائم ..

لا أتصور أن إنساناً يقتل إنساناً .

ـ ١٣ ـ

طرح على ـ أخى الأكبر ـ الفكرة ، فوافقته عليها . أعطانا خالى عبد المنعم العيدية ، فأودعناها أمى . وضعتها فى درج الكومودينو ، وقالت : لما تطلبوها ..

كانت قطع الجاتوه فى فاترينة الحلوانى المقابل لقهوة فاروق ، قد أغرتنا بشرائها ، ولم تكن أمى فى البيت ..

أخذنا النقود ، واشترينا قطع الجاتوه ..

لم نكن قد انتهينا من أكلها ، حين فتحت أمى الباب ..

قلت من نفسى :

ــ أخذنا نقودنا واشتريناها ..

زوت ما بين حاجبيها متسائلة :

ــ أى نقود ؟

ــ عيدية خالى عبد المنعم ..

ـــ من أين ؟

ـــ درج الكومودينو ..

تبدل وجهها . حل فيه غضب وقسوة غريبة :

ـــ هل أذنت لكم ؟!

قال على :

ـــ إنها فلوسنا ..

ألقت على الأرض ما كانت تحمله ، وسحبت من فوق الدولاب حبلاً كانت تخصصه لعقابنا . لفته حول أقدامنا ، وتوالت ضرباتها بالشماعة ، حتى أجهدها التعب ، وبدا أنها تعانى فى التقاط أنفاسها ..

اكتفينا بالصراخ والاستغاثة ، وأننا لن نكرر ما فعلناه ..

لم نجرؤ على تذكيرها باقتناعنا اننا اشترينا الجاتوه بالعيدية التى أعطاها لنا خالى عبد المنعم ..

ـــ ١٤ ـــ

أطال أبى تأمله فِىّ وأنا أفكر فى باعث مناداته علىّ ..

قال :

ــ هل تذهب إلى أبعد من شارع الميدان ؟

كنت أشترى ما يطلبه أبى من شارع الميدان : الخضر من دكان عم محروس الملاصق لجامع الشوربجى ، واللحم من جزار ــ لا أذكر اسمه ــ قبالة دكان عم محروس ، والسمك من دكان على ناصية وكالة الليمون . أما البقالة فكنت أقرأ القائمة التى كتبها أبى ، ليعدها الخواجة خريستوفيدس ، ويضعها داخل كيس ورقى بحمالتين من الدوبارة ..

قلت لأبى :

ــ ذهبت مع أصدقائى إلى ميدان المنشية ، وميدان محطة الرمل ..

قال :

ــ المشوار الذى ستذهب إليه خلف سينما الهمبرا .. يعنى فى محطة الرمل ..

تسلمت الأوراق من أبى ، ومضيت فى شارع فرنسا إلى ميدان المنشية . اختصرت الطريق من شارع سعد زغلول ، وملت ــ قبل ميدان محطة الرمل ــ إلى الشارع المجاور لسينما الهمبرا ..

سألت عن الخواجة لويجى . سلمته الأوراق ، فسلمنى مظروفاً ، خمنت أنه يحوى نقوداً ..

عدت من الطريق نفسها ..

كان المرض قد هد أبى ، فقل خروجه من البيت . أسرعت فى خطواتى ، يدفعنى شعور بالمسئولية ، وأنى أفعل شيئاً من أجل أسرتى ..

ـ ١٥ ـ

ينفلت عادل الصبروتى من الباب الحديدى الضيق ، المتصل بالواجهة الهائلة لمدخل الجمرك . من حولنا عساكر بوليس وبحارة وعمال ميناء وعتالون . نحصى مستطيلات البازلت الصغيرة ، ونحن نتجه إلى قلب الميناء . نتأمل الحاويات ، والأجولة ، وبلوطات الخشب ، ومواسير الحديد ، والصناديق المصفوفة فى المخازن ، والبراميل ، والحبال ، ومبنى الترسانة الضخم ، ومكاتب مصلحة الجمارك ، وأحواض السفن ، والنداءات ، والمساومات ، والسائق ــ فى غرفته الزجاجية أعلى الونش ــ يحرك الذراع الهائل ، يدور فى الفضاء نصف دورة ، يلتقط من ظهر الباخرة

صندوقاً ضخماً ، يدور نصف الدورة ، ثم يهبط به إلى أرض الرصيف ، فوق صناديق أخرى مماثلة . نحاذر بقع الزيت والقطران وبرك الماء ، وفى السماء نوارس وغربان سود ..

يدفع عادل تعريفة لسائق القارب . يقلنا من باب واحد إلى باب ستة . تطول وقفتنا أمام البواخر الضخمة لشركة البوستة الخديوية ..

أسأل :

ــ هل يأذن لنا أهلنا بركوب هذه البواخر ؟..

يتجه الصبروتى ناحيتى بملامح الدهشة :

ــ لماذا ؟..

أسرح بالتصورات :

ــ أريد أن أركب البحر .. أشاهد المدن البعيدة ..

كانت مطربة أول الأفلام التى رأيتها . لم أكن جاوزت الرابعة حين صحبنى عم إبراهيم زوج خادمتنا دهب إلى السينما ، حتى يبعدنى عن البيت فى أثناء انشغال أسرتى بوفاة أخى الأصغر . قلبى دليلى ، وأغنية " مش ممكن أقدر أصالحك .. وكمان مقدرش أخاصمك " ..

اجتذبنى الصوت من يومها . أحببت سماعه فى الراديو ، وفى دندنات شقيقتى التى كانت تحب الغناء مثلى . أصبح لصوتها تاريخ فى ذاكرتى قبل أن أحب الصوت ـــ فيما بعد ـــ لتميزه ، لصفائه وعذوبته ..

لما قال أبى إن الإذاعة ستذيع حفل ليلى مراد ، التى تغنى ـــ للمرة الأولى فى حياتها ـــ على المسرح ، أزمعت أن أسهر لأستمع إليها [قرأت للناقد الموسيقى عادل الهاشمى ـــ فيما بعد ـــ أن ليلى مراد لم تحاول أن تستغل محاسن صوتها ، وعذوبته ، وسطوعه ، إلاّ فى الأغنية السينمائية ، وأنها " ابتعدت ـــ بذكاء ـــ عن مغامرات الغناء على المسرح أمام الجمهور "] . تشاغلت بالقراءة ، وبادعاء المذاكرة ، حتى علا صوت أبى بالسؤال :

ـــ هل نسيت أنك ستذهب فى الصباح إلى المدرسة ؟..

صعدت إلى السرير ، وفى نيتى أن أظل صاحياً . استدعى صوت ليلى مراد . أتمثل وقفتها على المسرح ، أتصور أداءها بعيداً عن أفلام السينما ..

ثم غطتنى أمواج النوم ..

* * *

ونحن نتناول طعام الغداء ، ظهر اليوم التالى ، كتمت حزنى عندما تكلم أبى عن ليلى مراد التى غنت على المسرح ، للمرة الأولى فى حياتها ، فأبدعت ..

ـــ ١٧ ـــ

اجتذبتنى حدوة الحصان المحيطة بالإمام ، فى جلسته على دكة المبلّغ بجامع سيدى على تمراز ، تحت تداخلات الضوء من مساقط الزجاج الملون . نزع الجبة ، واكتفى بالقفطان ، وكرر وضع راحته على جانب أذنه ، والميل بأعلى كتفه ، وربما استعاد الأسئلة من الملتفين حوله ..

وجدت لنفسى موضعاً بين السائلين والمنصتين واللائذين بأحلام تثقب قسوة الواقع . تحمل كلمات الإمام ـــ

بين صلاتى المغرب والعشاء ــ ما أستطيع فهمه ، وما يشرد به الخيال ، وما يصعب أن أتصوره ..

تجرأت ــ ذات مساء ــ فغمغمت بسؤال عن معلومة يصعب تصديقها ..

استعاد الإمام سؤالى ..

علا بالسؤال صوتى ..

أجاب الإمام بما لا أذكره ، وإن حملت كلماته معنى التوبيخ ..

لم أعد أجلس إلى درس الإمام ، ولا أتردد على جامع سيدى على تمراز .

ــ ١٨ ــ

فاجأنى أبى بوقفته على ناصية الشارع الخلفى الفاصل بين بيتنا وجامع سيدى على تمراز . كنت مشغولاً فى لعب الكرة ، فلم أدر إن كانت وقفته قد طالت . أسرعت ــ بعفوية ــ ناحيته ..

قال :

ــ ألم أقل لك لا تهلك الحذاء بلعب الكرة ..

هززت رأسى مؤمناً ..

خفت صوته فبدا كالهمس :

ــ هل أحرجك أمام أصدقائك ؟..

أودعت صوتى نبرة متوسلة :

ــ لا !..

مال فى اتجاه البيت . تبعته دون أن ألتفت ناحية قطعتى الحجر اللتين خلا ما بينهما من حارس للمرمى .

ــ ١٩ ــ

لست أذكر متى اكتشفت مكتبة أبى ، ولا أول ما قرأته فيها . كانت فى موضعها من الأرض إلى السقف ، فى الزاوية بين الشرفتين اللتين تطل إحداهما على شارع إسماعيل صبرى ، وتطل الثانية على شارع رأس التين ..

كانت فى موضعها من قبل أن أولد ، وأمضيت الساعات بالقرب منها ، وأنا مشغول باللعب قبل أن أدخل المدرسة ، ثم وأنا مشغول بتهجى الحروف ، بعد أن أصبحت تلميذاً فى روضة مصر الفتاة بشارع صفر باشا ..

لست أذكر اللحظة التى لاحظت فيها أن هذه مكتبة أبى ، وأن ما بها يضيف إلى تدرّبى العفوى على القراءة فى إعلانات السينما ولافتات الدكاكين ، فى أثناء عودتى من الروضة ..

ما أذكره أنى فى لحظة ــ لا أذكر زمنها على وجه التحديد ــ قررت أن أحاكى ما فى هذه الكتب ، وأكتب مثله ..

ــ ٢٠ ــ

بعد أن يعلو أذان العصر من جامع سيدى على تمراز ، أقف فى البلكونة المطلة على شارع إسماعيل صبرى . نظرتى لا تحيد عن بلكونة الجيران المقابلة . أتوقع إشارة من صديقى عبده خادم الجيران .. هل أنتظر ، أو أنه لن يكون ــ هذا الأصيل ــ بمفرده ؟..

يشير ، فأعرف أنه يمكننى الذهاب إليه . أجلس بالبيجامة والحذاء الكاوتش ، على بسطة السلم ، أمام الشقة الخالية من أصحابها . يضع عبده مجموعة من المجلات : المصور .. الاثنين والدنيا .. اللطائف المصورة إلخ .. أقبل

على قراءتها . أنسى كل ما حولى . حتى الأقدام الصاعدة والنازلة . أميل بأعلى جسدى لأفسح لها طريقاً ، وأعود إلى القراءة . عالم حافل بالشخصيات والأحداث والأخيلة والرؤى والتصورات ..

أعود إلى العالم المحيط بى على لهجة عبده المحذرة :

ـــ خلص بقى .. أصحاب الشقة زمانهم جايين !..

ـــ ٢١ ـــ

لاحظ الولد حمدى زناتى أن الناظر يتوقف عن الضرب حين يعلو صوت أحدنا بالاستغاثة : والنبى !..

لجأنا إلى استغاثاتنا ، تسبق ضربات الناظر ، فيرفع العصا قبل أن تنهال بالضربة الأولى :

ـــ خلاص .. مادمت حلفتنى بالنبى !..

ـــ ٢٢ ـــ

سألنى جاد افندى ـــ مدرس التربية الفنية بالبوصيرى الأولية ـــ قبل أن يعتذر عن عدم تكوين أول فريق لتنس الطاولة :

ــ لماذا لا تنضم إلى الفريق ؟..

قلت :

ــ ألعب للتسلية ، ولا أتوقع إحراز بطولات ..

ــ ولا أنا .. الفريق يحتاج إلى ستة أولاد .. انضم إليه خمسة فقط ..

ــ إنهم يجيدون اللعب ..

رسم ابتسامة متوددة :

ــ كل ما أطلبه منك أن ترتدى زى الفريق ، وتصحبنا فى مبارياتنا ..

وحقق الفريق بطولات ــ هل تذكر عبد العزيز الذى تحدثت لك عنه فى " حكايات عن جزيرة فاروس " ؟ ــ ونال كأس مدارس الإسكندرية ..

تسلمت الميدالية الصغيرة . ووقفت ــ مع أفراد الفريق ــ أتابع ــ بالشرود ــ كلمات الناظر المهنئة ..

كنت أفتقد الإحساس بالمشاركة ..

لا أذكر متى ، ولا كيف غاب الأبناء الثلاثة فى شقة الطابق الثانى . يبدون — فى طفولتى الباكرة — كأطياف ، فى صعودهم على سلم البيت ، ونزولهم منه .. لكن الملامح والتصرفات تغيب تماماً ، فلا أذكرها ..

ظل باب الشقة مغلقاً ، لا يفتح — أو يوارب — إلا لومضات ، يبين فيها محصّل الكهرباء ، أو بائع الخبز ، أو البواب . ورأيت الأب بقامته الضئيلة وخطواته المتقافزة — فى أيام متباعدة — وهو يمضى ناحية شارع فرنسا . أما الأم ، فقد لمحت شعرها الأبيض المهوش ، ووجهها المائل إلى السمرة ، وعينيها الخاليتين من الأهداب ، وهى تكلم عم أحمد البواب على باب الشقة فيما لم أتبينه . كانوا فى حالهم ، لا يزورون ولا يزارون ، ولا يحاولون التعرف إلى أحد . حتى التحية تتحول فى شفتى الرجل حروفاً مدغمة ، حين يلتقى على السلم بمن يلقى التحية . حتى النوافذ والشرفات ، تعودت أن أراها مغلقة وأنا أعود إلى البيت من المدرسة ، أو من اللعب فى الشارع الخلفى ..

وقال أبى عصر يوم ، فى عودته إلى البيت :

ـــ يبدو أن بقية سكان الطابق الثانى رحلوا إلى إسرائيل ..

إسرائيل ؟!

كنت أستمع إلى الراديو ، وأتابع المناقشات بين أبى وأصحابه حول قرارات التقسيم والقدس ودير ياسين والشهيد أحمد عبد العزيز ومعركة القسطل ودولة إسرائيل المزعومة ..

قلت :

ـــ أليست إسرائيل عدوة لنا ؟..

قال أبى بلهجة باترة :

ـــ طبعاً ..

قلت :

ـــ لماذا إذن سافر سكان الطابق الثانى ؟..

قال أبى :

ـــ لأنهم يهود .. إسرائيليون ..

زوت أمى ما بين حاجبيها فى دهشة :

ـــ هل رحلوا ليكونوا أعداءنا ؟!!

أعاد القول بلهجته الباترة :

ـــ طبعاً ..

أخلت أمى وجهها للدهشة :

ـــ لكننا لم ندس لهم على طرف ؟!..

ـــ ٢٤ ـــ

كنت قد أكلت مكتبة أبى . قرأت ما بها من كتب التراث ، وأعمال المنفلوطى وطه حسين والعقاد والمازنى والزيات وعلى محمود طه والجارم وفائق الجوهرى ، ومجلات الإسلام والكاتب المصرى والمقتطف وردیدز دايجست ، وسلاسل إقرأ وكتاب الهلال وكتب للجميع [ألاحظ أنى بدأت بقراءة مؤلفات كبار الأدباء والمجلات ، والدوريات ، العادية . ثم قرأت ـــ فيما بعد ـــ كتب الأطفال !] . لم أقرأ كل الأعمال لكل الكتاب ، ولا كل الدوريات ، وإنما قرأت ما وجدته فى مكتبة أبى ..

اطمأننت إلى مخزونى المعرفى . ناقشت ـــ فى ضوئه ـــ أصدقائى ، وأصدقاء أبى أيضاً . وصار لى آرائى المؤيدة ، والمتحفظة ، والرافضة ..

سلامة موسى ..

حين نطق شاكر ، الصنايعى فى دكان الترزى أسفل بيتنا ، الاسم ، استعدته ثانية ..

قال شاكر :

ــ سلامة موسى .. ألا تعرفه ؟..

أردف موضحاً :

ــ إنه من أهم كتاب هذا العصر ..

قلت :

ــ لكننى لم أعثر على أعماله فى مكتبة أبى ..

وشت لهجته المؤدبة بسخرية واضحة :

ــ هذا لا يلغى قيمة الرجل ..

وأعارنى شاكر " تربية سلامة موسى " . ثم قرأت أعمال سلامة موسى : هؤلاء علمونى .. مختارات سلامة موسى .. أحلام الفلاسفة .. الاشتراكية .. اليوم والغد .. الدنيا بعد ثلاثين سنة .. البلاغة العصرية واللغة العربية .. عقلى وعقلك .. الشخصية الناجعة .. التجديد فى الأدب الإنجليزى الحديث .. محاولات سيكولوجية .. المرأة ليست لعبة الرجل .. نظرية التطور وأصل الإنسان .. برناردشو .. الثورات .. إلخ ..

مفردات اللغة ، وبساطة الأسلوب ، والدعوة إلى الحرية والديمقراطية ، والتبشير بمستقبل العلم ، ونيل المرأة حقوقها .. بدا لى ذلك كله مختلفاً ــ فى مجموعه ــ عن الكتابات التى أتيح لى قراءتها فى مكتبة أبى ..

أدركت أنى ــ لكى أتثقف ــ لابد أن أتجه إلى مكتبات أخرى ..

ــ ٢٥ ــ

امتلكنى التردد ــ لثوان ــ والترام يزيد من سرعته ، بعد أن غادر محطة الصينية بمحرم بك إلى محطة الرصافة ..

كنت قد اخترقت شوارع جانبية من مدرستى ــ الفرنسية الأميرية ــ لأركب الترام من أوله ..

أغرانى قيام الترام قبل أن أصعد إليه بأن أقفز داخله . جاوزت سرعته ترددى . اندفعت أقبض ــ بيد ــ على القائم الحديدى ، بينما اليد الأخرى تحمل حقيبة الكتب ، لكن قدمى أخطأت السلم ..

انحشرت بطولى فى الفجوة التى تخلفت من عمليات صب خرسانة بين قضيب الترام وأسفلت الطريق ..

حلت لحظة سكون ، لا صلة لها بانطلاق عجلات الترام الحديدية بجوار جسدى المكوم داخل الحفرة الطولية ، ولا بالكتب التى تناثرت من الحقيبة . غاب التذكر والرؤية والإحساس باللحظة والخوف والأمل . حتى الصراخ خنقته قوة فى داخلى لا عهد لى بها ..

تنبهت ــ بعد زمن ــ إلى أن الترام مضى بعيداً ، فعدت إلى نفسى ..

ــ ٢٦ ــ

لأن وهيب تادرس من عائلة ثرية ، فقد صدقناه حين أعلن أن قلمه الذهبى سرق من حقيبته . تناثرت الهمسات والشائعات ، وشخط الأستاذ جمعة مدرس اللغة العربية ونطر ، وهدد الناظر بأنه سيأمر باستدعاء أولياء الأمور ، كل أولياء أمورنا . نحن مدرسة محترمة ، ولسنا معهداً لتخريج اللصوص ..

طال اجتماع الناظر فى مكتبه بالمدرسين . ثم اقتحم الأستاذ عبد العليم مدرس التربية الرياضية همساتنا :

ــ نصيحتى لمن سرق القلم أن يعيده قبل صباح الإثنين .. اتفق حضرة الناظر مع منجّم ليتوصل إلى شخص السارق ..!

تملكنى خوف : هل يكتشف المنجّم الولد السارق بالفعل ؟ وماذا لو أنه أخطأ فدلّ على تلميذ آخر ؟ ماذا لو أنه وجه اتهامه لى أنا ؟..

قال المدرس :

ــ أعد من أخذ القلم ويعيده بأن يظل الأمر سراً ، ولن نحاسبه ..

أضاف هو يهز إصبعه :

ــ أما إذا أصر السارق على فعلته ، فإننا لا نعده ــ عندما يكتشفه المنجم ــ إلاّ بالعقاب !..

شرد تصورى فى آفاق لا متناهية .. فأنا أطرد من المدرسة .. وأنا أواجه لوم أبى ــ لم يضربنى حتى مات ــ .. وأنا حائر ، ضائع ، بلا مدرسة تقبلنى ، وبلا مستقبل ..

وأنا أواجه نظرات الشماتة والسخط والرفض فى عيون زملائى .. وأنا أحيا مرارة الظلم حين يؤذى بريئاً !..

بدت اللحظات التالية كأنها بلا انتهاء . ولعل بقية الأولاد أحسوا بما أحسست به . ثم اقتحم الصمت ارتطام شئ بالأرض ..

اتجهت النظرات إلى أسفل الدرج ، فى أول الفصل .

كان القلم بين قدمى الولد ، وفى عينيه تمازج حيرة وخوف !

ـ ٢٧ ـ

كنت قد أغمضت عينى ، وتهيأت لحلاقة رأسى . يجرى عم عبد السلام الحلاق فى الشعر بالمقص . يشذب مؤخرة الرأس والجانبين ، ويترك الخصلة الأمامية متهدلة ، أسرحها بالمشط ، أو بأصابعى ..

تنبهت على ملمس ماكينة الحلاقة وصوتها ..

فتحت عينى ، ونظرت فى المرآة ..

كان عم عبد السلام قد جرى بالمقص فى أوسط الرأس ، فجعله حليقاً ..

تنقلت عينا عم عبد السلام بين نظرتى الغاضبة ونظرة أبى المطمئنة ، فى وقفته على باب الدكان ..

خمنت ما حدث ..

لم يكن بوسعى إلاّ أن أترك عم عبد السلام ــ من خلال دموعى الصامتة ــ يجرى بالماكينة فى رأسى ، يجردها من الشعر تماماً ..

ــ ٢٨ ــ

اجتذبنى المشهد ، فتوقفت على بسطة السلم ، وحدّقت ..

كانت القطة قد أقعت ، ونزلت بجسمها حتى لامست بطنها الأرض ، وتعالى من فمها المغلق مواء غريب ، بينما القط يمتطى ظهرها ، ويلامس أسفل بطنه ردفيها ..

استعدت رؤيتى لعم أحمد البواب ، حين لم يرد على ندائى المتكررعليه ، فدفعت حجرته فى حنية السلم ..

كان قد شلح الجلابية ، فتعرت مؤخرته ، وارتمى فوق زوجته التى كانت قد تعرّت تماماً، وأحاطت ظهره بساقيها ..

— ٢٩ —

كان الولد بهيج يقول لنا :

ــ ياللا نحب !..

كنا نتصور الحب فى معاكسة البنات . وإن أمكن فالاحتكاك يهمنا . وكان سوق الخيط ــ بمساحته الضيقة ــ يتيح لنا الهمس بتعليقاتنا ، والاحتكاك بالواقفات أمام الطاولات الزجاجية ..

كنا نحرص ألاّ نقدم على ما يعرّضنا للأذى . وحين أردت أن أضغط على ثدى البنت السائرة بجوارى قرصتها ..

صرخت البنت ، فجريت ، وظل ملمس ما وضعت يدى عليه ، أتحسسه ، وأغمض عينىّ منتشياً ..

— ٣٠ —

لم تكن خادمة ، وإن كانت تمارس فى بيتنا أعمال الطبخ والغسيل والتنظيف . هى قريبة لنا من بعيد ــ على حد تعبير أبى ــ فليس أبواى فى مخاطبتها لهما : سيدى ، أو ستى ، كما كانت خدامتنا " دهب " تدعوهما ، إنما هو سى

لطفى افندى ، وهى بنتى خديجة . وكانت تنام على أسرّتنا ، وتضع الطعام على المائدة ، ثم تجلس معنا لتناوله ، وتتوسط جلستنا فى حجرة القعاد المطلة على الميناء الشرقية ، وتدخل مع أبى وأمى فى مناقشات ، وتحلق بأخيلتنا فى حكايات وحواديت ، وتذكر ما يحزن فتبكى ، وما يسر فتطلق ضحكة ذات ذيل يحمر لها وجه أمى ، ويهمس أبى فى غضب مكتوم : وبعدين بقى ؟!..

حين علت فى داخلى نيران البلوغ ، استعدت احتضانها لى وهى تشاركنى النوم على السرير . تضع جسدى الصغير بين فخذيها ، وتضغط ، وتعانى ما يشبه الرجفة ..

زرتها فى عمارة الأوقاف بشارع رأس التين . أتحسس ــ فى الظلمة ــ السلمات الخشبية المتآكلة . الحجرة تطل على المنور الداخلى ، ضيقة ، أثاثها كنبة للجلوس والنوم ، ولصق الجدار المقابل طاولة خشبية مستطيلة ، عليها وابور جاز وحلل وأكواب ، واستند على الحائط كرسى من الخيرزان ، أمامه ترابيزة بثلاثة أرجل ، وافترشت الأرض سجادة من قطع القماش الملونة . أجلس بالقرب منها . تعتذر عن ضيق المكان ، وأنه ليس قد المقام . ظروفها صعبة منذ

رحل الرجل قبل أعوام [تشير إلى صورته المعلقة على الجدار] وانشغل الأبناء بأحوالهم ..

تلاحظ ــ لابد ــ ما تنطق به عيناى . تروى ما يخالف حواديت الطفولة . تتناثر فى كلماتها مفردات أستمع إليها للمرة الأولى . أكتفى بالإنصات الذاهل ، وبمعاناة جفاف حلقى ، وارتعاش أطرافى الذى لا أقوى على كتمه ..

تتقافز الكلمات على شفتى ، تريد أن تصل ما كان بما أتمناه ، وأتوقعه : لو أنها تحتضننى بكل ما تبقّى فى ساعديها من عافية ؟!..

ــ ٣١ ــ

بدا لى اقتراح التوءمين مغرياً . لا أدرى أيهما سبق الآخر فى عرض الاقتراح ، لكننى تأملته ، فرأيت فيه فرصة لكى أرفع إلى مقام فتاتى رسالة تعبر عن مشاعرى ..

كانا يقيمان فى الطابق الثالث من بيت فى زاوية التقاء شارعى إسماعيل صبرى والميدان . وكانت فتاتى تقيم فى الطابق الأول ..

صادقتهما فى ألعاب الشارع الخلفى ، وتبادلنا رواية الظروف الأسرية ، والأسرار الخاصة . ولما تحدثت عن حبى للفتاة ــ التى كانت دائمة الوقوف فى النافذة ــ عرضا أن يوصلا لها رسالة منى ..

أمضيت الليل فى كتابة الرسالة ..

سودت صفحتى كراسة ، ثم مزقتهما . ثم كتبت ثلاث صفحات ومزقتها . وكتبت صفحة واحدة أو أقل ، قرأتها مرات كثيرة . حذفت كلمات وحروف وأدوات وصل ، وأعدت قراءة ماكتبت فى تصور أنها تقرؤه ، واطمأننت إلى الرسالة تماماً ، فقدمتها إلى التوءمين ..

أسكت التوءمان تلهفى على صدى الرسالة بحكايات عن تأثر فتاتى بما كتبت ، وأنها لا تستطيع أن ترد برسالة مماثلة ، وإن أبلغتهما أنها تأمل أن تتوالى رسائلى لها ..

أرقدتنى الأنفلونزا فى السرير ثلاثة أيام ، لم أغادر خلالها البيت ، لا إلى المدرسة ، ولا إلى ألعاب الشارع الخلفى ..

كان الأولاد ــ فى عودتى إلى اللعب عصر اليوم الرابع ــ قد التفوا فى حلقة ، يتوسطها التوأمان ..

اقتربت من الحلقة فى أثناء انشغالهم بما كان يقرأه التوأمان ، وبالضحكات العالية ..

كان التوءمان يقرآن رسائلى التى عرضا رفعها إلى مقام فتاتى .

ـ ٣٢ ـ

فاجأتنى بوقفتها على باب البيت . بدت أقصر مما كنت أراها وهى تطل من البلكونة . وكانت ترتدى قميص نوم أبيض ، منقوشاً عليه زهور ملونة ..

كان الولد أحمد عوض يصرخ : أختى نادية ، حين يأخذ أحدنا كرته ، أو يدخل معه فى خناقة ، ونحن نلعب فى الشارع الخلفى الملاصق لسيدى على تمراز : كرة الشراب والدوم والبلى والنحل وعنكب ياعنكب وأوّلها اسكندرانى . تطل من النافذة ، وربما ارتفقت سور البلكونة بيديها ، وتصيح :

ــ أنا نازلة !..

كنا نجرى من تهديدها . فلما تبيننا أن التهديد لا يجاوز ما تقول ، لم نعد نجرى . نظل فى ألعابنا ، وإن كنا نترك له كرته ، ونهمل العراك ..

وشت عيناها الواسعتان ، الغاضبتان ، وشعرها المهوش ، وقدماها الحافيتان ، بأنها تنوى الأذية بالفعل ..

جريت . فجرت ورائى ..

ملت من شارع الشوربجى إلى شارع إسماعيل صبرى . أجرى بآخر ما عندى ، وهى تلاحقنى ..

قبل أن أميل إلى شارع صفر باشا ، قبالة مقام سيدى العدوى ، تعثرت قدمى فيما لم أفطن إليه . ارتمت بجسمها فوقى ، وهى تنهال بقبضتيها فى كتفى وظهرى ..

كانت قد دسّت وجهى فى صدرها . أحسست بالنعومة فى ملمس نهديها ، وشممت رائحة العرق ..

أغمضت عينى ، وقد اختلطت فى داخلى مشاعر غريبة ، لم أستطع تبينها ، وإن ارتخى ذراعاى ، واستسلمت لسكينة هادئة ..

ـ ٣٣ ـ

قال أبى وهو يضع طربوشه على البوفيه :

ـــ الولد سعد منصور مات ..

ضربت أمى صدرها :

ـــ يا مصيبتى .. الولد صغير ..

قال أبى :

ـــ قتلته رصاصة فى المظاهرات التى خرجت بعد صلاة الجمعة من أبو العباس ..

سعد منصور ! .. القامة الطويلة ، الشعر الكثيف المجعد ، الجبهة العريضة ، الوجه القمحى المستطيل ، العينان السوداوان العميقتا النظرة ..

كنا نتسلل ـــ من باب نمرة واحد ـــ إلى داخل الميناء الغربية . ننتقل بين المخازن والحاويات والأجولة وبالات القطن . نستقل الفلوكة من رصيف بواخر البوستة الخديوية إلى باب نمرة ٦ . وكان يقودنا فى حمل الفوانيس . نسعى بها بعد صلاة التراويح ، نقف أمام كل دكان ونغنى لصاحبه : الدكان ده كله عمار .. وصاحبه ربنا يغنيه . إذا وهبنا " العادة " انصرفنا ونحن نعيد الأغنية . إذا رفض ، نغنى فى لهوجة : الدكان ده كله خراب .. وصاحبه ربنا يعميه !.. ثم نجرى . علمنا جر الشكل : ينط واحد منا على رقبة الرجل

الذى لا نعرفه ولا يعرفنا . ينزل به الأرض . نلحقه بالعصى فى أيدينا ، ونجرى . يقف ، ويتلفت حوله على لا أحد ..

تأمل أبى التماع الدمع فى عينى :

ــ يجب أن تفرح لسعد .. فهو شهيد ..

لم أفهم الكلمة فقلت :

ــ لكنه مات ..

توتر صوته بالانفعال :

ــ لأنه مات شهيداً فسيدخل الجنة !

تخيلت ما كان يرويه إمام جامع أبو العباس فى دروس المغرب عن الحياة فى الجنة : الملائكة والأغنيات والأنهار والحدائق والفاكهة التى بلا حصر والطعام اللذيذ والشراب المصفّى ..

قلت لأبى :

ــ إذا قتلنى البوليس فى المظاهرات .. هل أدخل الجنة؟!..

صدمنى السؤال فى البداية : إنت ابن خديجة ؟..

خديجة هى أمى ، لكن الإسم الذى ألفت المناداة به : محمد لطفى جبريل . هكذا ينادوننى فى المدرسة ، وربما اكتفوا بإسم واحد من الأسماء الثلاثة ، وما تعلمته ـ منذ طفولتى الباكرة ـ أن ذكر اسم الأم من العيوب التى تبلغ حد الخطيئة ، فأمى هى أم على ـ أخى الأكبر ـ ولولا أن أبى كان يناديها باسمها المجرد ، ما كنا عرفناه ..

كانت زيارتى الأولى لخالتى نبوية ، فى بيتها المتفرع من شارع أبو الريش بدمنهور . هى شقيقة جدتى الصغرى ، وتحيا فى بيت ريفى ، خصصت باحته الأرضية للبهائم ، بينما تقيم بقية الأسرة فى الطابق الفوقى ..

بدا كل شىء دافعاً للتأمل والدهشة ، فلم أكن ترددت على بيت ريفى من قبل . حياتى كلها فى الإسكندرية ، وزياراتنا إلى دمنهور فى بيوت تنتمى إلى المدينة ..

كان الاعتزاز يرافق تقديمهم لى : ابن خديجة .. وأسرفوا فى احتضانى بمشاعر دافئة ..

لم تعد التسمية تضايقنى . ولاحظت أنى قدمت نفسى لمن نسوا تقديمى لهم :

ــ أنا .. ابن خديجة !

ــ ٣٥ ــ

لما علا " صوات " جدتى فى أيام العزاء لأمى ، قال أبى إنها تبكى على ابنتها ، وعلى زوجها الذى سبق موته قبل شهور ..

كان يتخلل صواتها كلام عن ظروف وفاة جدى . أحس بصداع بعد أن أنهى طعام إفطاره فى رمضان . خرج لشراء أسبرين من دكان البقالة القريب ، فمات فى الطريق . من تحل وفاته فى المناسبات الدينية يضمن الجنة ، وهو قد ضمن الجنة حتى من قبل وفاته ..

أذكر من جدى طيبة واضحة فى ملامحه وتصرفاته . وجهه مستدير ، قمحى ، وعيناه ساجيتان ، وابتسامته واسعة ، سخية ، تملأ الملامح كلها . يعتدل فوق رأسه طربوش جيد الكى ، و" البنيش " واسع ، له أكمام فضفاضة ، مشقوقة عند

نهاياتها . ويتدلى على كتفه شال من الكشمير ، والحذاء أجليسيه ، وتقبض يده على منشة عاجية بيضاء ..

قلت لأبى :

ــ هل دخل جدى الجنة ؟..

داخل صوت أبى تهدج :

ــ وتدخلها أمك بإذن الله ..

وامتلأ وجهه بنظرة تأثر دافقة :

ــ عانت الكثير فى مرضها فتطهرت من الذنوب!..

ــ ٣٦ ــ

كان الخوف يلفنى تماماً ، وأنا أجلس ــ إلى جانب أخى وأبى ــ على الكنبة الجلدية المواجهة لحجرة العمليات . مرض أمى الدائم أخّر طهورنا . صحبنا أبى إلى عيادة الدكتور السرياقوسى بالعطارين لإجراء ما كان ينبغى إتمامه منذ سنوات . زاد فى خوفى صراخ أخى الأكبر ، وبكاؤه ، ورفضه دخول حجرة العمليات ..

لجأ الممرض ذو الجسد العملاق إلى كتم صراخه بيد ، وحمله باليد الأخرى إلى داخل الحجرة ..

قال أبى :

ــ على خوّاف .. أما أنت فستدخل بمفردك ..

أشار إلى الممرض ــ الذى بدا كأنه يتهيأ لحملى ــ بالانصراف ..

أضاف وهو يحتضننى بنظرة مشجعة :

ــ أليس كذلك ؟..

هززت رأسى ، وغمغمت :

ــ نعم ..

وسرت ناحية الحجرة ..

كان الخوف يثقل خطواتى ..

ــ ٣٧ ــ

حدد لى ممدوح الطوبجى موضعاً خلف السور الحديدى ، المغطى بأوراق شجر الجهنمية ، بالقرب من حجرة عم مبروك البواب . لا يفطن لوجودى أحد ، لا فى الشارع ، ولا فى البيوت المقابلة ، وإن استطعت الرؤية من خلال تكاثف أوراق الشجر ..

سبق دخول السيارة شارع المدرسة الضيق ــ مضى زمن طويل ، فلم أعد أذكر اسمه ــ تحرك التلاميذ ليفسحوا الطريق . ملاكى سوداء ، يبدو من وراء نافذتها الخلفية المفتوحة وجه سيدة فى أواسط الأربعينيات ، لم تفلح القبعة ذات الريشة ، ولا تزويق وجهها ، فى إخفاء ملامحها الريفية ..

هذه هى إذن نجاة على ..

لم أكن فى السن التى تهبنى وعياً متكاملاً ، ولا أمتلك الثقافة الفنية التى تتيح لى التعرف إلى مكانة نجاة على بين مطربات ذلك العصر . كل ما كنت أعرفه أنها مطربة شهيرة للغاية . ثم علمت ــ فيما بعد ــ أنها بدأت حياتها الفنية فى الثلاثينيات ، واستطاعت ــ فى مدى قصير نسبيّاً ــ أن تحتل مكانة متميزة بين مطربات عصرها : أم كلثوم وفتحية أحمد وملك وفاطمة سرى وحياة صبرى ونعيمة المصرية ورتيبة أحمد وغيرهن .. ثم اجتذبتها السينما ، فقامت ببطولة فيلم " شىء من لا شىء " إخراج أحمد بدرخان . ثم تقاسمت بطولة " دموع الحب " أمام عبد الوهاب ، و " لحن من السماء " أمام محمد أمين ، و " الحظ السعيد " أمام حسين صدقى . ثم

قرأت ــ فيما بعد ــ أن ظروف نجاة على المادية قد تأثرت بظروفها الصحية ، فباعت عمارة كانت تملكها بالإسكندرية ، لمواجهة نفقات العلاج ..

قلت بالفضول لممدوح الطوبجى :

ــ هل ترينى صورة والدتك ؟..

بحلقت عيناه بالدهشة :

ــ لماذا الصورة ؟.. إنها تزورنى فى المدرسة مرتين كل أسبوع ..

وحدثنى عن إقامته مع أبيه ، بعد أن افترق عن أمه ، وتزوج من ثانية ..

ألفت الوقوف فى الموضع الذى حدده لى الطوبجى . تظل الأم فى جلستها داخل السيارة ، وتتبادل كلاماً لا أتبينه مع ممدوح الواقف أمام النافذة ..

* * *

حين يتناهى صوت نجاة على بأغنية " العش المهجور " أصيخ السمع باستمتاع ، لا لمجرد جمال الأغنية ــ هى جميلة بالفعل ــ وإنما لأنها تعيدنى إلى أيام وقفتى المتطلعة ،

خلف أوراق شجر الجهنمية المتسلقة لسور المدرسة الحديدى ..

ـ ٣٨ ـ

حين قررت حسم الأمر ، واختيار إحدى الهوايتين : كتابة القصة ، أو لعبة الجمباز ، كنا ـ أخوتى وأنا ـ نحيا الذكرى الخامسة لوفاة أمى .. فقد ماتت قبل أن أبلغ العاشرة ..

مع ذلك ، فإن جزئيات يوم الرحيل ظلت محفورة فى ذاكرتى . نسيت معظم تلك الأيام التى قبله ، ومعظم الأيام التى بعده .. لكن أحداث ذلك اليوم الغريب ، ظلت قريبة ، كأنها جرت أمس ..

كانت أمى قد أدركت دنو أجلها ، فأوصتنا بأنفسنا ، وببعضنا البعض . واعتذرت لأبى عن مرضها الذى طال .. ثم استغاثت بنا من شىء لم نتبينه ، وماتت ..

لم أكن أدرى : ما الموت ؟..

لكن الهمسات التى كان يتبادلها أبى وبعض أقاربى خارج حجرة أمى ، دفعتنى إلى الوقوف على باب الحجرة ، أتأمل ، وأحاول الفهم . ثم حدث ما رويته فى قصتى " أحمس يلقى السلاح " وإن استبدلت الأب بالأم :

" دفعت به أمه إلى السلم بيد أرعشها الفزع ، فخطف الدرجات . لم يرفع أصبعه عن جرس شقة الطبيب فى الطابق الأول إلاّ حين أطل الرجل بوجه غاضب ، وإن ابتلع كلماته عندما أخبره بما حدث ..

دس الطبيب السماعة داخل الحقيبة الجلدية . صعد إلى فوق ، وهو يتبعه ..

بدت خطوات الرجل متمهلة . أطال الوقوف خلف النافذة المطلة على ميدان الساعة . دنا بجسده فتلامسا ، كأنه يدفعه ..

غالب تردده :

ــ لقد غاب عن الوعى تماما ..

شمل الطبيب الجسد الساكن بنظرة متفحصة . فك أزرار القميص ، ورفع الفانلة ..

كان البطن قد تكور بصورة غريبة ، وبحلقت العينان ، وتداخلت فى شحوب الوجه زرقة قاتمة ..

مال بأذنه ، فتنصت على الصدر ، وضغط بأصبعين فى البطن المنتفخ ، وقلب العينين ، وحدق فيهما . ثم لملم الثياب كيفما اتفق ، وسحب الملاءة ، فغطى الجسد كله ، وقال : انتهى ! "

كنت قد تعرفت إلى الأدب فى مكتبة أبى . وحاولت أن أكتب بعض المحاولات المقلِّدة ، أصل ما أكتبه بجمل وتعبيرات قرأتها لأدباء عرب وأجانب . أنقل الجملة التى تعجبنى فى كشكول ، أعود إليه لأختار التعبيرات المناسبة ، أحاول تضفيرها بما أكتبه ، وتعويض ما تحمله كلماتى من سذاجة مؤكدة !..

وحين عرضت محاولاتى على أبى ، أعادها لى ، مشفوعة بابتسامة يصعب أن أصفها لك :

ــ هذه قصة لى ..

دون أن تغادر الابتسامة ــ التى يصعب أن أصفها لك ــ وجهه :

ــ أنت ابنى .. وأنا أعرف قدراتك !

ومع أن ما كنت أقدم عليه لم يجاوز " الاستعارة " التى تختلف ــ بالتأكيد ــ عن نقل المسطرة ، والسطو الصريح الذى يعانيه أدباء هذه الأيام من نشّالى الأدب ، والذين ينطبق عليهم حد الحرابة .. فإن الإحباط دفعنى إلى التفكير فى الأمر : أى الطريقين يجدر بى أن أمضى فيه إلى نهايته ؟..

كنت موزعاً بين القراءة فى مكتبة أبى ومحاولات الإبداع ، وبين التردد على ناد رياضى فى شارع الكنيسة المرقسية بالإسكندرية ، أمارس لعبة الجمباز ، يساعدنى على أداء حركاتها جسم نحيل رشيق ، لاصلة له بانضمامى ــ فيما بعد ــ إلى حزب الجميز !..

أقول : حين قررت حسم الأمر ، كانت ذكرى أمى قد تملكتنى تماماً ، فقررت أن أكتب إليها رسالة ، وأصبحت ــ من يومها ــ أديباً ، وخسر الجمباز ناشئاً مجدّا ، ربما استطاع أن يحرز لمصر بطولات !..

المهم ، كتبت الرسالة . وكانت ــ فى الحقيقة ــ شيئاً مؤثراً . توليفة طيبة من المنفلوطى وطه حسين والحكيم وعبد الحليم عبد الله ومحفوظ وعمر عبد العزيز أمين ودروس الإنشاء !.. وقررت ــ لإعجابى بها ــ أن

أنشرها . وذهبت بمخطوطى إلى مطبعة الشباب فى ميدان السيدة زينب ، وسألت عن قيمة طباعة خمسمائة نسخة . وتعمد الرجل أن يرفع السعر ، فقال بلهجة متحدية :

ـــ جنيه !..

ووافقت دون فصال ..

واستلمت ـــ بعد أقل من أسبوع ـــ أول إنتاجى المطبوع : ملزمة كاملة بعنوان " الملاك " .. وأمى ـــ بالطبع ـــ هى المقصودة بالتسمية ..

حملت النسخ ، فى ربطة واحدة ، إلى بيت عمتى بالمنيرة ، وبدأت فى بيع النسخ ـــ بالمجهود الذاتى ـــ على الأهل والأصدقاء والجيران .. النسخة بقرشين !

وتبينت ـــ بعد شهر كامل ــــ أن كمية النسخ المباعة ، جاوزت المائة .. فحملت بقية النسخ إلى مكتبة المنيرة التابعة لدار الكتب ، ورجوت من المشرف أن يسمح لى بإهدائها إلى دار الكتب وفروعها بالقاهرة والأقاليم .. فوافق ضاحكاً ـــ أعترف بأنى لم أدرك مغزى الضحكة ، إلاّ عندما بحثت ـــ ذات يوم ـــ عن كتابى الأول فى قوائم دار الكتب ،

فلم أجده ! ــ وأعطانى الرجل إيصالاً بالاستلام على ورقة كراسة ..

خرجت من المبنى ، وفى النفس رؤى وأحلام وتصورات ..

كنت قد أمسكت بخيط المجد فى يدى ..

وقررت ألاّ أفلته .

ــ ٣٩ ــ

اشتد المرض على أبى ، فترك المكاتب الثلاثة التى كان يعمل بها ..

كما رويت لك فى أوراق سابقة ، فقد كان يترجم من لغة إلى أخرى فى المكاتبات الاقتصادية والتجارية . لم يكن الموظف يتقاضى ــ فى نهاية خدمته ــ سوى مكافأة ، قد تكون عالية ، لكن المثل يتحدث عن التل الذى يختل بدوام الأخذ منه . وقد أخذنا من التل حتى استوى بالأرض ..

نسيت الكثير من تلك الأيام القاسية ، ولكن من الصعب أن أنسى ذلك اليوم الذى حاول فيه أبى أن يسكت صراخ الجوع فى بطوننا . أخذ ما كان فى النملية ، رغيف خبز

وحيد . قسّمه إلى أربعة أجزاء متساوية ، كل واحد منا ــ أخوتى وأنا ــ أكل جزءاً ..

وظل أبى على جوعه ..

ــ ٤٠ ــ

لا أذكر متى انبجس الشعور فى داخلى . لم أعد أطيق أن ينفق أبى على ..

كنت قد اشتريت بوصة وسنارة وطعماً ، وجلست ــ بالساعات ــ على صخور الميناء الشرقية ، بالقرب من مرسى المراكب . عدت إلى البيت بسبع سمكات ، قدمتها أختى مقليّة إلى جانب الطبيخ ..

قررت أن أصبح صياداً ، أنفق على نفسى . أقيم فى بيت أبى ، وأذهب إلى المدرسة ، وأذاكر ، لكننى آكل من فلوسى . أعانى الحرج حين نجلس حول المائدة . ترتعش يدى وهى تقطع الرغيف ، وتمتد إلى الطبق ، وتدفع باللقمة إلى فمى ..

كنت قد رضخت للأمنية . لم أسأل : لماذا ؟.. لكننى كنت قد تحولت رفضاً للأكل من جيب أبى ..

أمضيت اليوم بطوله فى إلقاء السنارة فى الماء ، وترقب الصيد . ثم عدت إلى البيت ، والحقيبة القماش خالية إلاّ من سمكتين صغيرتين ، لم تجد فيهما أختى ما يغرى بالقلى ..

نادى أبى علينا ، فجلست حول المائدة ، أعانى الحرج ، وأتمنى لو أنفق على طعامى من جيبى ..

ـ ٤١ ـ

بدت حديقة ميدان المنشية ساكنة وقت العصر . خلت من الرواد تماماً ، وإن تناثر مارة وجالسون على الأرصفة وأمام الدكاكين فى الميدان الفسيح . وعلى البعد نصب الجندى المجهول يضوى بالتألق تحت الشمس ..

كنت قد اشتريت حبات الأسبرين ، ثلاثين حبّة ، دسستها فى جيب البنطلون ..

كانت تلك هى المرة الأولى التى يصفعنى فيها أبى على وجهى . لم يكن آذانى ــ ولا أخوتى ــ من قبل . إذا أخطأنا ، أو ارتكبنا ما يغضبه ، فإنه يكتفى باللوم ، وربما سكت بالخصام . أغضبه أنى ضربت أخى الأصغر ، فضربنى ..

لم أكن تنبهت إلى الأسرة التى فرد أفرادها ــ تحت شجرة قريبة ــ ورقة جريدة ، وضعوا فوقها الطعام ، وتعالت أصواتهم ..

ملت إلى ميدان محمد على ، ومضيت فى شارع شريف ..

بدا لى المكان أمام مكتب بريد العطارين مناسباً لجرع حبات الأسبرين . قذفت فى حلقى واحدة ، وثانية . قضى على ترددى ملاحظة العرضحالجى أمام المكتب ، وصياحه الخائف : يا مجنون .. يا مجنون !.

تملكتنى قوة لا عهد لى بها ، دفعتنى إلى ابتلاع حبات الأسبرين . نسيت الزمان والمكان والحياة والموت . نسيت كل شىء . حتى باعث إقدامى على الانتحار نسيته ، وتناثرت أغلفة الأسبرين على الأرض أمامى خالية من حبّاتها ..

دهمنى ــ فى اللحظة التالية ــ خوف ، خوف حقيقى من توقعات قاسية . وكان العرضحالجى قد ابتعد ، ربما بالخوف من المسئولية والسين والجيم ..

أسرعت إلى مطعم مصطفى درويش فى الناحية المقابلة ..

تناهى الصوت المتثائب فى التليفون :

ــ من المنتحر ؟

قلت :

ــ أنا !

ــ ٤٢ ــ

قاضى البهار ..

بدا الاسم ــ حين قاله أبى ــ غريباً . تصورته قراءة فى كتاب قديم .. لكن سياق الكلمات نبهنى إلى أن الاسم لجد لى ، ورثنا أوقافه بعد حل الأوقاف الأهلية ..

كان أبى يتردد على مبنى الأوقاف بشارع فرنسا أول كل عام . يقلب فى يده ــ باعتزاز ــ أوراقاً نقدية قليلة ، ويقول : هذا هو العائد السنوى لوقف جبريل ..

وجد أبى فى حل الأوقاف الأهلية ، بادرة أمل لمجاوزة ظروفنا القاسية . تحدث عن اكتشافه لأصولنا المغربية ، وكثر تردده على مبنى الأوقاف ، وراسل أقارب فى دمنهور

وكوم حمادة وأطفيح ومدن أخرى ، وزار أعمامى فى محرم بك ، واستقل القطار إلى بقية أخوته فى القاهرة ، واقترض مبالغ من جيران وأصدقاء ، بوعد السداد عندما يحصل على نصيبه من إيراد الوقف ..

ثم مات أبى دون أن نجاوز ظروفنا الصعبة ..

ومض الوقف فى حياتنا مرات متباعدة ، ثم اختفى . انشغلنا بأحوالنا ، وتناسيت الوقف ، وإن ظلت فى ذاكرتى تسمية قاضى البهار ، تنقلنى إلى مصر القرون الوسطى ، وألف ليلة وليلة ..

واخترت محمد قاضى البهار — فيما بعد — بطلاً روائياً !

ـ ٤٣ ـ

حين نادى عم برعى الساعى باسمى أمام باب الفصل ، نظرت إلى زملائى وهيب تادرس وحسين السنباطى وممدوح الطوبجى . أدركت أن ناظر المدرسة قد قرأ المذكرة التى كتبتها ضد الأستاذ عبد العليم مدرس التربية الرياضية ..

كان الأستاذ عبد العليم يقف فى جانب مكتب الناظر ، فعرفت أنه قد عرف بما كتبت ..

أهمل الناظر ما لابد أنه قد ظهر على ملامحى من ارتباك ، وهز الورقة الفولسكاب أمامه :

ــ من كتب هذا الكلام ؟..

ــ أنا !..

أشار بإصبعه ناحية الأستاذ عبد العليم :

ــ أستاذك ينفى ما ذكرت ..

ــ شاركنى فيما كتبته زملاء آخرون ..

كانت مدرستنا الفرنسية الأميرية فى شارع المأمون هى أولى مدارس الإسكندرية التى جعلت الفرنسية لغة ثانية بدلاً من الإنجليزية . تميزت بصالة فى البدروم ، نتناول فيها كل ظهر طعاماً ساخناً وفاكهة ..

لاحظ حسين السنباطى اختفاء قطع اللحم من أطباق الخضار . قال :

ــ رأيت الأستاذ عبد العليم وهو ينصرف من المدرسة ، وفى يده كيس يشف ورقه بدم اللحم ..

قال وهيب تادرس :

ــ إذن نشكوه إلى الناظر ..

قال ممدوح الطوبجى :

ــ محمد جبريل هو أقوانا فى موضوعات الإنشاء ..

تماوج ــ فى داخلى ــ الرضوخ والاعتزاز ، وأنا أخلو إلى الورق ، أكتب ، وأحذف ، وأمزّق ، وأعيد الكتابة . فى بالى رأى زملائى الثلاثة فى قدرتى على الصياغة ، وأن الناظر سيتعرف ــ بقراءة الشكوى ــ إلى جمال إنشائى !..

استدعى الناظر زملائى ممدوح الطوبجى ووهيب تادرس وحسين السنباطى ..

تنقلت نظراتهم ــ بالخوف ــ بين الناظر والمدرس وبينى . سألهم الناظر ، فأنكروا أن لهم صلة بما كتبت ، وأن هبر اللحم تتوسط أطباق الخضار دون حذف ..

دهمتنى مشاعر صاخبة من الذهول والخوف والقرف ..

حدجتهم بنظرة استغاثة ، وتلفت حولى فى حيرة ..

وسكت .

الحدوة الهائلة لحديقة سراى رأس التين تحيط بنا . ثمة جنود الحرس الملكى يتدربون على إطلاق الرصاص فى جانب الحديقة القريب من السراى ، و "صول " كث الشارب يلكز المخطئ بأسفل حذائه ، وزرقة السماء تشوبها سحب متلاحقة ، عابرة ، ونسائم الخريف تطوّح العلم الذى يعلو السارية ..

قال ابن عمتى إبراهيم جعفر للشرود الذى لاحظه فى نظرتى :

ــ أنت لا تذاكر ..

قلت متنبهاً :

ــ بل أذاكر ..

وهو يرنو بنظرة إشفاق :

ــ شرودك يشى بأنك لا تذاكر ..

قلت :

ــ تأثرت لما قلته عن نصيحة عمتى بأن تبتعد عنى لأنى أحب الأدب ولا أذاكر ..

قال بلهجة مشفقة :

ــ هل أخطأت حين صارحتك ؟..

أسلمت نفسى لتفكير ، ثم قلت :

ــ لا .. ولكن ــ عندما أكبر ــ سأصبح أديباً مهماً ، فتندم عمتى على نصيحتها !

ــ ٤٥ ــ

صلاح شاهين ..

تعرفت إليه ــ للمرة الأولى ــ فى صحن أبو العباس . شجعتنى جلسته الهادئة ، المتأملة ، أن أسأله عن معنى عبارة بالفرنسية ..

رسم على شفتيه ابتسامة ود :

ــ أنا أعرف الإنجليزية ..

قبل أن أمضى إلى الركن الذى اخترته للمذاكرة ، قال :

ــ فى أى سنة أنت ؟..

ــ أولى ثانوى ..

ــ أستطيع أن أشرح لك مواد اللغة العربية والعلوم والتاريخ ..

استطرد فى ابتسامته الودود :

ــ والدين طبعاً !..

تعددت لقاءاتنا فى صحن الجامع . أسأله ويجيب ، ويوضح لى المواد التى يغيب عنى فهمها . وأتاح لنا توثق الصداقة ــ رغم فارق السن ــ أن أحدثه عن أسرتى ومدرستى وحبى للأدب ، وأن يحدثنى عن تخصصه النادر بين مهندسى شركة النقل والهندسة . وتعلمت منه كيف أبدأ الصلاة دون أن أرفع صوتى بالعبارات التى تسبق التكبير ، فالنية موضعها القلب . وتعلمت الكثير مما كنت أجهله من أمور الدين ، وأحببته كأنه أخى ..

غاب صلاح شاهين عن الجامع أشهراً متوالية . وحين عرضت على صديقى عادل الصبروتى أن نزوره فى شركة النقل والهندسة بسيدى جابر ، ضرب الصبروتى جبهته بأصابعه متذكراً :

ــ نسيت أن أخبرك ..

وتنهد :

ــ صلاح شاهين مطارد الآن من المباحث ، فهو عضو قيادى فى الأخوان المسلمين ..

كنت قد ركبت الأوتوبيس من أول الخط . اخترت الموضع الذى أحبه . المقعد ناحية اليمين لصق النافذة . شغلنى التطلع إلى المارة والإعلانات واللافتات المثبتة على الشرفات والنوافذ ، عن زحام المحطات التالية ..

صحت برؤيتى للواقفين فى المحطة :

ـ بابا ..

هز أبى يده دلالة أنه رآنى ..

تابعت اندساسه بين الواقفين على الرصيف ، والواقفين على سلم الأوتوبيس ، وفى الطريق ، حتى اقترب من مقعدى ..

تبينت أنه يجب أن أخلى المقعد ، ليجلس أبى مكانى ..

تماوج فى داخلى شعور غريب ، لم أتبينه جيداً ..

لما عدت إلى شقتنا ، كانت الشمس تعلو الأسطح والطوابق العليا ..

كان أبى يكتب ما لم أتبينه . تناثر على ترابيزة السفرة أوراق بيضاء وصحف وقواميس ومجلدات ..

قال دون أن يرفع رأسه :

ــ هات الرسالة التى أتيت بها من شركة الجرّاية ..

قلت :

ــ أنت تعرف أنها فى جيب الجاكتة .. لماذا لم تأخذها؟..

قال وهو يقلب فى الأوراق أمامه :

ــ وأنت تعرف أنى لا أحب أن أمد يدى فى أشيائك !

أخرجت الرسالة من جيب الجاكتة المعلقة على الشماعة . سلّمتها لأبى وأنا أتامل قرص الشمس وقد توهج بالحمرة فى نهاية الأفق ..

لمحت الجنيه ملقى على أرضية الطرقة الباركيه ، كانت الأبواب مغلقة . كنت قد تسلمت من الخواجة مانولى أوراقاً باليونانية ، أعود بها إلى أبى ليترجمها إلى العربية ..

قدمت الجنيه إلى الساعيين على باب الطرقة ، يرتدى كل منهما بدلة كاكى ذات أزرار صفراء :

ــ وجدته على الأرض ..

أخذ أولهما الجنيه ، ودسه فى جيب الجاكتة العلوى . أشيب الشعر ، وجه مستدير ممتلئ ، وصدغان متهدلان ، وفى عينيه جحوظ واضح ، فبدتا ككرتين صغيرتين ، ويفتر فمه عن أسنان صدئة متكسرة ..

انتهره الثانى . جسم مدكوك ، تداخل عنقه بين كتفيه ، ووجه نقره الجدرى ، وشارب كث ، تداخل فيه السواد بالبياض ، وتهدل على جانبى الفم ..

ــ الولد هو الذى رأى الجنيه ..

استطرد الأشيب الشعر :

ــ وأعطاه لى ..

ــ هل أصبحت خزينة الشركة ؟!

علا صوتهما ، فبدا كالشجار ..

ترامى صوت الخواجة مانولى من داخل مكتبه :

ــ ماذا جرى ؟..

وحين عاد أبى إلى البيت ، ظهر اليوم التالى ، ابتدرنى بالسؤال :

ــ ما حكاية الجنيه الذى رآك سعاة الخواجة مانولى وأنت تسرقه ؟!

ــ ٤٩ ــ

كان أجمل ما نستمتع به فى النادى الرياضى ، التابع لمدرسة إبراهيم الأول الثانوية ، حفلة العاشرة صباحاً فى سينما رأس التين ..

تبرعت أميرة من العائلة المالكة ــ لا أذكر اسمها ــ بمقابل الحفلة صباح كل جمعة . نذهب إلى المدرسة قبل التاسعة . نصطف فى طوابير . نمضى من شارع جودة إلى شارع رأس التين ..

حفظت أغنية عبد العزيز محمود " بحّر يابوى وقبّل " . كانت السينما تذيعها فى بداية كل حفلة ، ثم تعرض لنا مسلسلاً أجنبياً يسبق الفيلم العربى ..

كان البطل فى المسلسل الأجنبى اسمه " الشجيع " ، أو " السجيع " . هذا هو اسم كل الأبطال ، لا شأن لنا بأسمائهم الحقيقية . أما البطلة فهى " البت " . ولابد أن يكون أحد الشخصيات عم البطل . أسماء محددة ، وثابتة ، نراها فى كل المسلسلات ، وبالذات مسلسلات رعاة البقر . والبطل دائماً هو الرجل السوبر الذى ينقذ البطلة ــ وأحياناً عمّه ــ من أصعب المواقف . نستحثه وهو يسرع بحصانه لإنقاذها من أيدى أفراد العصابة . نهتف ، ونصيح ، ونصفق ، حتى ينقذ الفتاة قبل أن يلحقها أذى . فإذا أنقذها فى اللحظة الأخيرة ــ لابد أن تكون اللحظة الأخيرة ــ اشتد تصفيقنا له ، إعجاباً ..

ولما قامت ثورة ٢٣ يوليو ، صادرت أملاك الأسرة المالكة ، فألغيت حفلات السينما الصباحية ، وتوقف ــ بعد أيام ــ نشاط النادى الرياضى ..

ــ ٥٠ ــ

يعلو أذان الفجر من جامع سيدى على تمراز المجاور . أزيح الغطاء ، وأسير إلى الحمام لأتوضأ . أحاذر فلا أصدر

صوتاً ، ربما ضايق الجيران ، فى أثناء نزولى على السلم . يسبقنى الأصدقاء إلى داخل الجامع ، أو يلحقون بى . نتلاصق فى صفين أو ثلاثة ، ونؤدى الصلاة حاضراً . يقيننا الدينى بحر بلا ساحل . نؤدى الصلاة فى أوقاتها ، ونحرص على الصوم يوماً أو يومين من كل أسبوع ، ونتناقش فيما قرأناه من كتب دينية . نغادر الجامع ــ بعد الصلاة ــ إلى شارع رأس التين ، ومنه إلى إسماعيل صبرى . تبين ــ فى الظلمة المتكاثفة ــ أنوار المراكب المتناثرة فى الميناء الشرقية . تبطئ خطواتنا ، ونحن نتأمل طلوع الشمس فى الشرق . شريط من اختلاط الألوان . يتصاعد ، فيغلب عليه اللون الأحمر . يتسع الضياء باكتمال قرص الشمس فى الأفق الشرقى ، فلا تستطيع التحديق فيه .

ــ ٥١ ــ

أثق أنك ستجد فى ما سأرويه لك صلة بالأفلام العربية ، الجهارة ، والموعظة المباشرة ، والحض على الحرام والخطيئة .. ذلك آخر ما يشغلنى ، ولعله لا يشغلنى إطلاقاً .

أنا أروى ما حدث ، لأنه ألح على بالدهشة ، والتعرف إلى شبه المستحيل ..

كانت ضيفة جيران الطابق الثانى قد تعللت للصعود إلينا بما لا أذكره . واحتوانا صمت الشقة ، وإيماءاتها الداعية ، وتوترنا .. وأتاحت لجهلى الحسى المطلق بعض ما لم يكن تعرف إليه ..

أعقب نزولها شعور طاغ بالندم . عمقه تنبهى إلى أن وفاة أبى مضى عليها أسبوعان ..

أدرت ــ بتلقائية ــ مفتاح الراديو الموضوع على رف فى الصالة . علا صوت الشيخ أبو العينين شعيشع بآيات القرآن : " قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعاً " ..

أثق أنك ستجد فى ما رويته لك سذاجة ، وما يصعب تصديقه ..

لكن ذلك ما حدث بالفعل ..

ــ ٥٢ ــ

التقيت بها فى ميدان المنشية ..

كانت فى حوالى الخامسة والعشرين . تحكم لف الملاءة فتبين تقاطيع جسمها ، ذات أهداب مكحولة ، وعينين صريحتين . تضع حول عنقها عقداً من الخرز الزجاجى . وفى ظهر يدها أثر حرق ، أو كى بالنار ..

تأملت الكتب التى أسندتها إلى صدرى ، وقالت فى لهجة ملونة :

ــ رايح فين يا وله ؟..

صدمتنى اللهجة ، وإن أثارتنى فى الوقت نفسه . لم أكن أعرفها ، ولا رأيتها من قبل . قلت مدفوعاً بحماسة طارئة :

ــ وانت مالك ؟..

مجرد أن أناوشها مثلما تناوشنى . كنت قد أنهيت مذاكرتى مع صديقى كمال فتحى فى بيته المطل على كلية العلوم بمحرم بك . ملت من ميدان المحطة إلى شارع أحمد مرسى بدر ، فميدان المنشية . أمضى منه إلى شارع فرنسا ، حيث يقع بيتنا فى نهايته ..

غمزت بعينها :

ــ عايزنى ؟..

بدت لى فكرة التجربة مثيرة . كانت لى فى الجنس تجربة واحدة ، مقرفة . هززت رأسى فى حماستى الطارئة دلالة الموافقة ..

سألت :

ــ ساكن فين ؟..

ــ فى بحرى ..

ــ لوحدك ؟..

ــ لأ طبعاً .. مع أهلى ..

ــ يبقى نروح بيتى ..

ــ فين ؟..

ــ فى الشاطبى ..

نزلنا من الأتوبيس فى انحناءة طريق الكورنيش بالشاطبى . كان البرد قاسيا ، والريح محملة برائحة البحر . وكان الشارع غارقاً فى الظلام ، فيما عدا أضواء متناثرة ، متباعدة ، أمام الدكاكين والكازينوهات المغلقة ، وثمة هدير الأمواج فى اصطدامها بالكبائن ، وبالكتل الخرسانية ..

أشارت إلى مقعد صخرى على رصيف الشاطئ :

ــ تعال هنا ..

سألت بالذهول :

ــ وبيتك ؟..

ــ ما ليش بيت ..

انداحت فى داخلى مشاعر الارتباك والغضب :

ــ انت خايف ؟.. تعاله جوه الشلالات ..

وتعالى صوتها بأغنية عبد الحليم حافظ : أول مرة تحب يا قلبى .. لكنها كانت قد استبدلت بكلمات الأغنية كلمات أخرى بذيئة ..

غلبنى الحرج ، وربما الخوف . تلفت حولى بتلقائية . فطنت إلى غرابة كلماتها وتصرفاتها . لم أدر ماذا أفعل . فقدت القدرة حتى على الكلام . تحولت الكلمات إلى غمغمة غير مترابطة ..

أضاءت ــ فى قلب العاصفة ــ سيارة قادمة على يمين الطريق ، فى داخلها ثلاثة شبان ..

عدت بمفردى إلى بحرى ، أعانى البرودة القاسية ، وأسد بيدى فتحة البلوفر . وكان المطر قد بدأ فى الهطول ..

التقيت بها فى بيت عمتى بالمنيرة . جارة فى البيت المقابل . مصرية التكوين الجسدى : البشرة القمحية ، والشعر الأسود ، والعينان البنيتان ، والقامة المدملجة . كانت عمتى تناديها باسمها المجرد : وفاء . وكانت تنادى عمتى : يا طنط ..

رويت تلميحاتها إلى صديقى محمد الجمل ، الطالب بكلية الطب البيطرى ــ أين هو الآن ؟ ــ . لكزنى فى جيبى :

ــ البنت تريد موعداً .. لا تفلت الفرصة ..

ــ وأين أدعوها ؟..

ــ فى دور السينما متسع للكل ..

ودعوتها إلى سينما الأهلى بالسيدة زينب . حجزنا بلكوناً لخمسة أفراد ، وإن جلسنا بمفردنا ..

أتاحت لى الاقتراب منها ، وملامستها ، ومدت بوزها ، فقبلتها . تشجعت فدسست يدى فى صدرها .. لكن الصرخة ــ صرختى ! ــ الخافتة ، العفوية ، سبقت سحب يدى . كان الثديان من نسيج غير بشرى ، ولعلهما كانا من المطاط ..

تناسيت ما حدث ، ونسيته . ثم استعدته عندما تحدثت عمتى عن مرض السرطان الذى تمكن من جسد بنت الجيران وفاء ، رغم العملية التى استأصلت ثدييها !..

ـ ٥٤ ـ

بدت اللغة الفرنسية حائطاً يصعب تجاوزه ، فى امتحان الثقافة العامة ..

نصحتنى عمتى ــ وكانت تستضيفنى فى إجازة الصيف ــ أن ألجأ إلى أستاذ فى الجامعة ، زوج لإحدى قريباتنا ..

خمنت أنه بمفرده فى الشقة . تطل على الشارع العمومى ، تحيط بجدران الصالة مكتبة عالية الأرفف ، وتمتلئ بآلاف الكتب والمجلدات والأوراق التى تبظ من حوافها . وثمة خمس حجرات أغلقت أبوابها ، وإن وضح نور النهار فى الباب الزجاجى لاثنتين منها ، وتعالى صخب الطريق ..

كان فى حوالى الخامسة والأربعين . جسده أقرب إلى الامتلاء ، وعيناه باهتتان خلف النظارة المقعرة . له حاجبان

كثيفان ، وأنف مقوس كمنقار . وثمة ارتجافة عصبية ، متكررة ، تسرى بالقرب من زاوية الفم ..

قال :

ـــ هل نبدأ من البداية أو أنك قطعت شوطاً ؟..

قلت :

ـــ أعرف ما يكفى لتجاوز البداية ..

وهو يشير إلى بدلته الكاملة على جسده :

ـــ الدنيا حر .. أبدّل ثيابى وأعود ..

لم أتثبت مما رأيت ، فأعدت النظر ..

طالعنى الرجل فى وقفته على الباب الموصل بين الحجرة المظلمة والصالة ببيجامة صيفية ، ووسع من فتحة البنطلون بحيث تكشف أسفل البطن ..

جريت ـــ بتلقائية ـــ نحو الباب . قطعت الطريق ـــ فى دقائق ـــ بين المنيل والمنيرة . صرخت عمتى للفزغ فى ملامحى ..

قالت متصعبة ، بعد أن رويت لها ما حدث :

ـــ قيل إنه شاذ .. لكننى لم أتصور انه يحاول معك أنت ..

وأخلت وجهها للغضب :

ــ أنت قريب زوجته !..

ــ ٥٥ ــ

أفاض مدير مكتب جريدة " الأهرام " بالإسكندرية ــ لا أذكر اسمه ــ [حوالى ١٩٥٦] فى التحدث عن الفيلم الذى ستدور حوله مناقشات الندوة . القصة عن ممثلة أمريكية ، عاشت ماضياً تحوطه الظلال . أرادت أن تفرض احترامها ــ بإسهامات مادية وعينية ــ على أهل قريتها الصغيرة ..

توالت الأسئلة والأجوبة والتعقيبات ..

رفعت يدى بطلب السؤال ..

قلت : هل احترام ذواتنا ينبع من داخلنا ، أو أنه ينبغى أن يجد صداه فى الآخرين ؟..

سخّف الرجل سؤالى بما لم أتوقعه . قال كلمات قاسية عن الشباب المايع الذى يسأل لمجرد اثبات الذات . أضاف إلى تألمى أن السؤال ــ كما تصورت ــ لم يكن نكراً ..

ظلت العقدة ــ من يومها ــ كامنة فى نفسى . أحضر الندوات ، فألوذ بالصمت . ثم استعدت قدرتى على المواجهة

، فى مخاطبة الآخرين ، الذين أتخيلهم وأنا أسير ــ بمفردى ــ على رمال الأنفوشى ..

ـــ ٥٦ ـــ

كنت أقف فى نهاية الحشود التى امتلأ بها ميدان المنشية . بالتحديد ، أستند إلى باب شركة البلاستيك المغلق . أنصت إلى خطاب جمال عبد الناصر فى ذكرى السادس والعشرين من يوليو . تحدث فى وقفته فوق مبنى البورصة ــ ذلك الذى أحرقته ــ فيما بعد ــ يد شريرة ، عن السد العالى ، وصفقة الأسلحة الروسية ، والمؤامرات الأمريكية ، والبنك الدولى . وحين أعلن تأميم قناة السويس ، تحول الميدان الفسيح إلى كتلة مشتعلة من المشاعر الصاخبة ..

كان الناس ــ إلى ذلك المساء ــ ما بين مؤيد لسياسة عبد الناصر ، ومعارض لها .. لكن مشهد الألوف الذين أحاطوا بسيارته ــ فى صباح اليوم التالى ــ وهو يتجه إلى محطة القطار ، وشى بمكانته الجديدة ، المتفردة ..

ـــ ٥٧ ـــ

بدا لى ميدان محطة دمنهور فى غير الصورة التى وعتها ذاكرتى . اللافتات وواجهات الدكاكين الزجاجية ، والباعة فى دائرة الميدان ونواصى الشوارع الجانبية ، والزحام ..

مضيت ــ باستدعاء الذاكرة ــ من شارع الصاغة إلى داخل المدينة ..

عرفت أنى لم أخطئ الطريق عندما تبينت سور المحلج إلى يسارى ، ومحطة كهرباء أبو الريش فى نهاية الشارع ذى البيوت القصيرة المتداعية . البيت ــ قبل انحناءة الطريق إلى الزراعية ــ يختلف بالطوابق الثلاثة ، والباب الحديدى ، والنوافذ الحديثة الطلاء ..

أعدت التلفت ، ثم صعدت ــ مدفوعاً بخلو المكان ــ على السلم إلى الطابق الثالث . كررت النداء ، فتناهى ــ من السطح ــ صوت متسائل ..

كانت تلتقط قطع الغسيل من الطشت ، جلابيب وبيجامات وفساتين وقمصان نوم وملابس داخلية . تعصرها فلا تقطر منها نقطة ماء . تنشرها على الحبل الممدود بين طرفى السطح . تثبتها بمشابك تأخذها من بين شفتيها ..

قلت :

ــ ألا تعرفيننى ؟

اقتربت بعينين متأملتين :

ــ مش واخده بالى ..

ــ أنا محمد .. ابن أختك خديجة ..

هتفت :

ــ محمد ..

وقبلتنى ..

مالت بكتفيها ورأسها إلى الوراء ، وقالت :

ــ انت محمد ؟..

قلت :

ــ مضى زمان .. كبرت ..

جرت بظهر كفها على شفتيها بتلقائية ، وهمست :

ــ اوعى يابنى ما تكونش انت .. ما تحملنيش ذنب ؟!

ــ ٥٨ ــ

لمحتها فى انحناءة الترام من شارع النبى دانيال إلى شارع السلطان حسين . كانت تضع على صدرها أكياساً من الورق ، يطل منها خضار وفاكهة ..

اجتذبنى الوجه الأبيض المشرب بحمرة ، والشعر المسدل فى إهمال ، والجبهة المنداة بعرق خفيف ، والعينان الواسعتان الصافيتان ، تظللهما رموش واضحة ، والأنف الدقيق ، والشفتان الرقيقتان . وكانت ترتدى فستاناً واسعاً ، وحذاء بدون كعب ..

ظلت الملامح فى ذهنى حين عدت إلى البيت . استعدت الوقفة والأكياس المحتضنة ، وظللت أستعيدها ، تنبثق فى رأسى كالومضة ، ثم تختفى ، وتظهر بعد فترة تطول وتقصر ، ثم تختفى ..

مضى خمسة وأربعون عاماً ، ومازلت أستعيد صورة المرأة فى انحناءة الترام ، كأنى رأيتها أمس .

ـ ٥٩ ـ

كنا نجلس على السور الحجرى الفاصل بين جامع أبى العباس والدحديرة الخلفية .

اجتذبنى انفعال كلماتها عن الحلم الذى تضعنى فى داخله : زوج أمها يجاوز التلميح إلى قبلات مفاجئة، ولمس باليد ، وقرصات ..

انتبهت على صوت الرجل ذى الشارب الكث ، والبالطو الكالح اللون :

ــ معك بطاقة ؟..

لاحظت ترددى فى الإجابة ، الذى لا بد أنه ارتسم على ملامحى . حدجت الرجل بنظرة واثقة :

ــ الصول مسعد الجناينى زوج أمى ..

تبدّلت لهجة الرجل الآمرة ، فصارت وداً :

ــ الدنيا ليل .. والجلوس فى هذا المكان خطر ..

أردف وهو يتجه ناحية الموازينى :

ــ سلمى على الصول مسعد !

ــ ٦٠ ــ

تظاهرت ــ فى البداية ــ أنى لا ألحظ ايماءاتها الداعية . كل ما فيها كان يدعونى . شعرها الذى أسدلته على وجهها المنمنم الملامح ، وبشرتها الرائقة ، وعيناها المكحولتان .

حتى قميص نومها الساتان الأسود ذى الحمالات الرفيعة ، يعلو ركبتيها وقدميها الحافيتين ، وهى تسند " سبت " الغسيل إلى ردفها الأيمن . تضعه على الأرض . تلتقط قطع الغسيل واحدة ، واحدة . تعصرها جيداً بحركة تحمّلها دلالة لا أخطئها . وتلتقط المشابك من بين أسنانها لتثبت بها قطع الغسيل . الفعل لا يخلو من دلالة مماثلة ، لا أخطئها . وكانت تطيل الكلام عن الزوج الذى يركب البحر أشهراً متصلة ، والوحدة التى يملأها صراخ طفلة صغيرة ، وحق المرأة فى زوجها .. كلام كثير لم تغب عنى معانيه ، وإن أهملتها . ربما لأنها كانت ــ إذا علا الأذان من مسجد سيدى المسيرى القريب ــ تغمغم بما لم أكن أتبينه من أدعية ..

زادت التلميحات ذات عصر شتوى . وكان كل شىء من حولنا ساكناً ، إلاّ من صوت اندفاعات الموج على شاطئ الأنفوشى ..

تجرأت فدنوت منها . احتضنتها بساعدى ، وملت لأقبلها ..

غلبتنى الحيرة حين نزعت شفتيها من استسلامها الساكن ، ودفعت ذقنى بأصابع غاضبة ، ومضت ــ وهى تبكى ــ ناحية باب السطح ..

ــ ٦١ ــ

غابت فوزية عن المصنع فداخلنى قلق ..

كنت أعد نفسى للعودة إلى الإسكندرية بعد أن قاربت الإجازة الصيفية على الانتهاء ..

كنت أتسلم بواكى الفانيليا والسحلب ودقيق الأرز ، تحملها السيارة الصغيرة إلى محال البقالة والعطارة والمقاهى . وكانت فوزية تعبئ أكياس دقيق الأرز . يلفنى الإشفاق لنوبات السعال التى تنتابها ، لا تهدأ إلا إذا دست فى فمها بوز الزجاجة الزرقاء المضلعة الجوانب ..

فاجأنى الجميع ــ ذات صباح ــ ببكائهم وتعليقاتهم الحزينة . لم أتصور ، لم أصدق ، أن فوزية ماتت ..

ماتت ؟!..

كنت أحرص على أن أكلمها ، آخذ منها وأعطى . أتأمل تناسق تكوينها الجسدى ، يقلل من الإحساس بضآلة

حجمها ، وشعرها الذهبى الطويل على شكل ذيل حصان ، بشريطة بنية رقيقة ، ووجهها الذى أضفى عليه الشحوب جمالاً ، أبرز ما يميزه غمازتان على الوجنتين ، وعينان عسليتان ، زاد من عمق بريقهما ظل الرموش الطويلة ..

قال عم داود أسطى ماكينة الطحين :

ـــ مسكينة .. قتلها السل !

قلت متنبهاً :

ـــ لهذا كانت ترتشف الدواء من الزجاجة الزرقاء ..

قال الرجل وهو ينثر الدمع من ذقنه :

ـــ بل كانت تبصق فيها ما لم نره .. تبصق دما !

ـــ ٦٢ ـــ

عندما اقترح عبد اللطيف مختار أن نسكر ونضاجع امرأة ، وافق سامى سلام وحلمى الفوال ، بينما لذت بالصمت ..

لم أكن قد تعرفت إلى نشوة التجربة الأولى . ولم أكن تذوقت الخمر ، ولا ضاجعت امرأة من قبل ..

شردت بالتصور إلى آفاق لا نهاية لها . تلاحقت أمامى ملامح واضحة وشاحبة وتكوينات وتصورات شكّلها الخيال ..

نزل الخادم إلى شارع السبع بنات ، أسفل اللوكاندة . عاد بزجاجتين حمراوين وضعهما على الطاولة المستديرة ، وقال :

ــ بعد أن يشعلل المزاج يأتى المراد !..

وغمز بعينه ..

ارتشفت ما امتلأ به فنجان صغير ، لم أتبين ما هو ، ولا اسمه ، لكن النار اشتعلت فى معدتى ، وصعد الغثيان إلى فمى ..

جريت إلى دورة المياه ، وتقيأت . شعرت بدوار ، أسلمنى إلى الغيبوبة ، أو النوم ..

لما صحوت كان الهدوء يلف الحجرة . عبد اللطيف مختار يقرأ جريدة الصباح ، ويحتسى كوب الشاى ..

ــ أين سامى سلام وحلمى الفوال ؟

ــ يشربان البورى فى القهوة ..

ــ كيف أمضيتم الليلة ؟

ــ شربنا وضاجعنا امرأة ..

وضم أصابعه على فمه :

ــ مثل القشطة !..

همست :

ــ وأنا .. أين كنت ؟..

كتم ضحكة فانتثرت بقاياها من أنفه :

ــ كنت تأكل مع الملائكة أرزاً باللبن !..

ــ ٦٣ ــ

حين جلست إلى جوار النافذة الخشبية فى الدرجة الثالثة بالقطار المتجه إلى القاهرة ، كان قد مضى على وفاة أمى ثمانية أعوام ، وعلى وفاة أبى عامان . ثمة شعور يملؤنى بأنى أستطيع أن أفعل ما أريد دون أن أخشى لوم أبى ، أو أذية أمى ..

تركت للتصورات مداها . الصحافة هى المهنة الأقرب لأحلام الكتابة . طوحت بى التصورات إلى جزر احتمالات الفشل . معى جنيهات قليلة ، وحقيبتان من الجلد ، ثيابى فى واحدة ، وفى الثانية ما استطعت حمله من مكتبة أبى ..

تسلل إلى داخلى قلق . حتى نصيحة عمى بأن أظل فى الإسكندرية ، أهملتها . لم يعد بوسع أحد ــ بعد وفاة أمى وأبى ــ أن يدفعنى إلى ما لا أريد فعله ..

زاد احساسى بالقلق ، فبدا كالخوف ، أو هو الخوف من احتمالات قاسية ، قادمة ..

بكيت .

ــ ٦٤ ــ

لحقتنى بالهمس فى الصباح :

ــ أنت الوحيد الذى ترفض أن تقربنى ..

عدلت النظارة الطبية :

ــ بالعكس .. أنا أراك جميلة ..

فتشت عن حجة لا تضايقها . ثم اندفعت الكلمات بالجرأة :

ــ المشكلة أنك تضعين جسدك فى خدمة كل من بالبنسيون .. وهذا يقرفنى ..

ولجأت إلى يدىّ معبراً :

ــ لو أنك استحممت واحتفظت لى بنظافة جسمك ..

استقبلتنى ـــ بمفردها ـــ آخر الليل ..

قالت إنها أمضت يومها فى الاستحمام ، وفى تصفيف شعرها ، وطلاء أظافر يديها وقدميها ، ورشت عطراً حول عنقها ، وخلف أذنيها ، فى صدرها ، وتحت إبطيها . ادعت المرض حتى لا يطلبها سواى ..

غالبت الحرج ، ثم اعتذرت بأنى متعب ، ودخلت حجرتى ..

كنت قد أنفقت آخر عشرة قروش . وكان قد بقى يومان على تسلمى مكافأة الجريدة ..

ـــ ٦٥ ـــ

لم يعد صعود الدرجات إلى مبنى دار المحفوظات بالقلعة مقصدى الوحيد . كنت أنفذ ـــ فى الاطلاع على الصحف القديمة والمخطوطات ـــ قراراً ـــ اتخذته بينى وبين نفسى ـــ بأن أقرأ كل ما أستطيع قراءته ، وإن أفدت من القرار ـــ فيما بعد ، على نحو علمى ـــ فى كتابى " مصر فى قصص كتابها المعاصرين " ..

ملت ــ بعفوية ــ أعلى الجبل . نظرت من الحافة إلى المقابر فى أسفل : أحواش ، تتوسطها شواهد وأشجار صبّار ، وتحدّها أسوار من الحجارة البيضاء والصمت . تمتد من بعدها بيوت القاهرة وشوارعها ومآذنها وانطلاق الخضرة فى مدى الأفق ..

بدّلت ما ألفته ، فأنا أميل إلى جانب الجبل ، بما يتيح لى النظر إلى اتساع المشهد أمامى . أتأمل ، وأعانى اصطخاب أفكار ورؤى وتطلعات ، لا أدرى أيها سيجد سبيله إلى التحقق فى المدينة التى غابت فى سكونها السادر ــ من وقفتى أعلى الجبل ــ صورة حياتها ..

ــ ٦٦ ــ

قال لى عمى :

ــ إن أصررت على البقاء فى القاهرة ، والعمل فى الصحافة ، فلا تنتظر مساعدتى ..

كان الرجل الأحمر البشرة قد قدم لى المظروف من وراء مكتبه ، وقال :

ــ الجمهورية تشكرك على خدماتك !..

غامت الرؤية أمام عينىّ ، وأنا أمشى فى الشوارع بلا معنى ، ولا هدف ..

عدت إلى البنسيون فى شارع فهمى . قلّبت فى الكتب التى قدمت بها من مكتبة أبى . دسست فى الحقيبة الجلدية ما تصورت أنى لن أعود لقراءته ..

هز البائع فى سور الأزبكية ربطة الكتب على راحة يده:

ــ جنيه ..

لحقنى قوله :

ــ تعدد مجيئك إلى السور .. لماذا لا تبيع كل ما عندك من كتب دفعة واحدة ؟!..

ـ ٦٧ ـ

بدا لى كتاب أبى ــ رغم أنى لم أكن قرأته بعد ــ أملاً وحيداً للقضاء على صراخ معدتى . استنفدت أيامى القاهرية كل ما كان معى من نقود ، ومقابل بيع ما حملته من الإسكندرية من كتب أبى . بدا لى الفقر مصدر تعاسة . لم أحاول أن أفتش عن النور بديلاً للفقر كما فعل ألبير كامى

الذى وجد فى الفقر سبب ثراء لا تعاسة . كان هم الوجبة التالية مضنياً . وكنت أبيع بنفسى رصيد " العقل " الذى تركه لى أبى . مئات المجلدات والكتب . كلما قرصنى الجوع اخترت أربعة أو خمسة منها ، وسرت إلى سور الأزبكية ـــ لم أحب هذا السور يوماً ! ـــ . يكتفى البائع ـــ فى معظم الأحيان ـــ بنظرة إلى عينى . يدرك الباعث الحقيقى لإقدامى على بيع كتبى . يقرر ـــ فى ثقة ـــ قروشاً قليلة ، وينتظر ـــ فى ثقة ـــ أن أوافق ..

دفع البائع فى ميدان باب اللوق ثلاثة قروش لكتاب ، قيمته الحقيقية جنيهان ..

انشغلت ـــ فى اللحظة التالية ـــ بكيفية تدبير الوجبة المتأخرة ..

عدت إلى البيت ، أحمل ثلاثة أرغفة ، وبخمسة مليمات طعمية . فى بالى أن الأرغفة الثلاثة ستسكت صراخ بطنى لفترة طويلة ..

احتفظت بالقرش المتبقى لظروف طارئة ، قادمة ..

علت المناقشة ، فأراد إسكاتى . صفعنى بقسوة . نزف الدم من أنفى . مددت يدى ــ بتلقائية ــ أطلب شرطة النجدة . أصر الضابط الشاب على اصطحاب الجميع إلى قسم الأزبكية القريب ..

بذل زميل وساطته الطيبة ، فى أثناء توجهنا إلى القسم ، فلا تؤدى شكواى إلى أذية زميل ..

قلت للشرطى ذى الشرائط الثلاثة ، فى جلسته وراء المكتب الخشبى الضخم :

ــ أراد صديقى مداعبتى فنزف الدم من أنفى ..

كان ذلك هو ما اتفقنا عليه ..

لكن زميلى ــ الذى صفعنى ــ قال فى بساطة باردة :

ــ أبداً .. هو الذى ضربنى ، ويريد التنصل من فعلته !

ــ ٦٩ ــ

قالت لى حبيبتى :

ــ ليس هنا .. فلنجلس على الكنبة ..

كنت قد احتضنتها ، مدفوعاً برغبة لم أقو على كتمها . تساندنا إلى الحائط . وضعت أصابعها بين شفاهنا ، وأشارت إلى الكنبة ..

عدلنا من جلستنا فوق الكنبة ، بحيث أستطيع احتضانها ، واحتواء جسدها كله ..

لما عدت إلى تقبيلها ، تبين لى أن رغبتى ليست كما كانت . ليست اللحظة التى كنت أحياها ..

ـ ٧٠ ـ

تحولت إلى انشغال كامل ..

بدا لى إنهاء كتابى " مصر فى قصص كتابها المعاصرين " هدفاً يجب بلوغه . شغلنى حتى عن عملى الصحفى الذى أحصل منه على راتبى ..

صحوت على صوت ارتطام فوق السرير . كانت صغيرتى أمل جالسة بجانبى ، تعانى الحيرة ..

قالت :

ــ أحاول أن أقوم فأسقط ..

تملكتنى دهشة صامتة ..

قامت أمل وسقطت . قامت وسقطت ..

انداح فى داخلى ما يشبه الزلزال . غابت الأسئلة والتوقعات والقراءة والكتابة وتسجيل الملاحظات . تبلورت مشاعرى فى ضرورة إنقاذ صغيرتى . صار هدف الحياة كلها ..

شخّص الطبيب الحالة بأنها ارتخاء فى الأعصاب ، رد فعل بنسبة واحد إلى كل عشرة آلاف لمن يصابون بالجديرى المائى ..

اصطنع ابتسامة متوددة :

ـــ إذا ساءت الحالة ، فمعنى ذلك أن الشفاء قادم ، وليس العكس ..

احتضنتها يومين . أجلس ، وتجلس فى حضنى . أستعيد طمأنة الطبيب بأن الشفاء نهاية تردى الحالة ..

وبدأ التحسن فى اليوم التالى ..

ثم استردت عافيتها تماماً ، فى الأيام التالية ..

تأملت الكتب والأوراق المكومة فوق مكتبى ..

نفضت رأسى لأستعيد التصور بأنها ـــ قبل أن تعانى أمل مرضها ـــ كانت انشغالى الوحيد ..

— ٧١ —

كنت أراه فى صالة " المساء " . فى حوالى الثلاثين . دائم التلفت ، وخطواته مسرعة ، وإن غلف نفسه بهدوء مفتعل . أبيض البشرة . لوجهه تقاطيع دقيقة . يرتدى نظارة شمسية ، ينزعها ــ برشاقة ــ بإصبعين ، ثم يعيدها ..

تصورته صديقاً لأحد الزملاء . ثم لاحظت أنه يكتفى بأحاديث عابرة ــ وهو واقف ــ مع زملائى فى الصالة ..

خمنت أنه من رجال الأمن بالدار ..

رفعت رأسى لرائحة أنفاس بالقرب منى . طالعتنى ملامحه الوسيمة ، الباسمة ، ونظارته الشمسية ..

أهملت ما بيدى من أوراق ، وأودعت عينىّ نظرة متسائلة ..

قال بصوت هامس يقطر أدباً :

ــ الرائد فلان الفلانى ..

رمقته بعينى الدهشة والشك :

ــ أهلاً وسهلاً ..

ــ هل يمكن أن نصبح صديقين ؟..

وأنا أحاول كتم مشاعر التوجس والعدوانية فى داخلى :

ـــ لماذا ؟..

ـــ مجرد أن نصبح صديقين ..

تكررت وقفته فوق رأسى ، يعرض صداقته الغريبة .

وهمس لى زميل إنهم يبحثون عن كتاب للتقارير ..

ـــ لماذا ؟ وضد من ؟..

ـــ أما لماذا ، فهذا عملهم .. وأما ضد من ، فليس الضد مطلوباً . إنما هى تقارير رأى عام بين الصحفيين ..

اقترنت جلستى إلى المكتب بتوقع مجيئه ، وهمساته المؤدبة ، وعرضه الذى لم أفهمه ..

قهرنى الضيق والحصار . قررت ـــ فى لحظة ما ـــ أن أشهر فى وجهه ما يصرفه عنى . ذكرت اسم اللواء عادل جبريل ، ابن عمى ، ووكيل المخابرات العامة آنذاك . لم أكن قد التقيت بعادل منذ سنوات بعيدة . لو أنى التقيت به ربما لا يعرف أحدنا الآخر .. لكننى لجأت إلى اسمه سلاحاً ـــ لا أملكه ـــ لصد الزيارات التى لا أحبها ..

قال فى ارتباك :

ـــ هل عادل جبريل ابن عمك بالفعل ؟..

تطلعت إلى نجمة الأمل :

ــ وأناديه يا أخى ..

لم أعد أراه ــ من يومها ــ فى صالة " المساء " ..

ــ ٧٢ ــ

فاجأتنى بصوتها الهامس :

ــ أمرنى الطبيب أن أنزع اللولب ..

حدجتها بعينين يطل منهما الحذر ..

ــ لو أنى أنجبت .. من سيكون والد طفلى .. زوجى أم أنت ؟

أذهلتنى الملاحظة . لم أكن أتوقعها ، وغاب المعنى فيما لم يكن له أسبابه ..

كانت تعمل تحت التمرين فى الجريدة . زوجة ولها طفلان . حين قدمت إلى الجريدة ــ للمرة الأولى ــ صحبها زوجها . قدم بطاقة تزكية . صاحب شركة استيراد وتصدير ، فى حوالى الخامسة والأربعين ، ممتلئ الجسم ، يرتدى

كرافتة . يخفى اللغد المتدلى ياقة القميص . بدا أنه يعانى تأثيرات لحمية من الصفير الذى يرافق كلماته ..

أعطيتها انتباهى لما تصورت أنها تطلب النصيحة ..

جاست ـــ فى حكاياتها ـــ غابات وأحراشاً ، فلم أفسّر الأمر إلاّ على أن هذه هى حياتها ، وأن النصيحة هى ما يجب أن أقدّمه ..

تأملت البراءة الظاهرة فى ملامحها : البشرة البيضاء ، الناعمة ، والعينين السوداوين الواسعتين ، والشفتين الرقيقتين تنفرجان عن كلمات هامسة ، وأسنان متسقة بيضاء ..

أجهدنى اختيار عبارات الدهشة . تقافزت الكلمات على اللسان وفوق الشفتين ..

وظللت ساكتا .

ـــ ٧٣ ـــ

أتممت نقل الجزء الأول من كتابى " مصر فى قصص كتّابها المعاصرين " على الآلة الكاتبة . أنفقت ما يزيد على السنوات السبع منذ كتبت السطر الأول ، حتى تحولت إلى

مجلد . عدت إلى مكتبى ــ مدفوعاً بإلحاح الإبداع ــ لأكتب روايتى " الأسوار " ..

توالت الصور والملامح والأحداث ، باهتة ، وواضحة ، ومؤكدة الدلالات ، وبلا معنى ، وإن فرضت شخصية " الأستاذ " نفسها ، بحيث أحسست أنها تملأ الحجرة بأنفاس حقيقية ..

كانت أقرب إلى شخصية المسيح عيسى بن مريم . قرأت فى حياة المسيح حتى تصورت ملامحه وتصرفاته ..

رفعت استغراقى من الورق ، فرأيت المسيح على باب الحجرة ، بملامح أوروبية ، وبشرة بيضاء ، ويرتدى عباءة بنية ، فضفاضة ، ودس قدميه فى صندل مفتوح ..

لحظة أو أقل ، دهمنى ارتباك . أعدت النظر ، فبدا الموضع على باب الحجرة خالياً ..

ــ ٧٤ ــ

كنا نشاهد العرض الأول لفيلم " نجمة الجماهير " ..

أضيئت أنوار صالة سينما ميامى فى أثناء العرض . علت الأسئلة وعبارات الدهشة والاحتجاج ..

أسكت تلاغط العبارات الغاضبة صوت فى الميكروفون " ننعى إليكم الرئيس جمال عبد الناصر " ..

عبد الناصر ؟!.. أين ؟ ومتى ؟ وكيف ؟..

تعالت الصرخات من جوانب الصالة . عبد الناصر مات . القامة العملاقة ، العينان الملتمعتان ، النظرة النافذة ، الفودان الأشيبان ، الحلم والأمل والإصرار والتحدى ..

مضيت من شارع طلعت حرب إلى ميدان عرابى . الناس فى ذهول صامت ، أو يبكون . قبل أن أميل إلى شارع الألفى طالعنى صديقى فوزى سليمان بعينين دامعتين :

ــ البقية فى حياتك ..

تمازج السؤال بعدم التصديق :

ــ الخبر صحيح ؟!

ــ أعلنه السادات .. والتليفزيون والإذاعة يذيعان القرآن ..

تلاحقت الصور متقاطعة ، متداخلة ، متشابكة . السؤال الهامس أمام بيتنا فى شارع إسماعيل صبرى : لمن الموكب ؟.. تصل الإجابة : جمال عبد الناصر ، واحد من بتوع الثورة . إصرارى على اللحاق بموكب محمد نجيب بين

الآلاف الذين أحاطوا بسيارته ، يهتفون باسمه ، ويرفضون تحية عبد الناصر الواقف إلى جانبه : مش لك !. وقفة عبد الناصر فوق مبنى البورصة ، يعلن تأميم القناة . ذوبان الآراء المتناقضة فى حب جارف للرجل . انصاتى لمناقشات أبى مع أصدقائه ، وقراءاتى ، عن حب المصريين لمصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ومصطفى النحاس : هل كان حبهم فى نفس الدرجة التى أحبوا بها عبد الناصر ؟. خطبة الأزهر ، وقرارات المصادرة ، والتأميم ، والتعبير عن البسطاء ، وزيادة أعداد المعتقلين ، ونفوذ العسكر ، وهزيمة ١٩٦٧ .. صور متلاحقة ، متقاطعة ومتشابكة ، لكنها تتفق فى قيمة الرجل . تعلمت السياسة فى ممارساته : الموافقة ، والرفض ، والتمرد ، والتحدى ، والثورة . أحببته كما أحببت أبى ، وإن أهملت ما شاب تصرفاته من قسوة . أذكر قول يفيتشنكو ــ رداً على التساؤلات المندهشة لجنازة ستالين : لم نكن نعرف أباً سواه ..

جلست إلى مكتبى فى الجريدة . حاولت أن أكتب . بدا الحدث أكبر من كل الكلمات . تملكنى عجز كأنى لا أحسن الكتابة . عاودنى الإحساس الذى حدثتك عنه فى روايتى

التسجيلية " الحياة ثانية " : أواجه المواقف الخطرة بفقدان القدرة على التصرف ، كأنه التبلد !

ــ ٧٥ ــ

جاءنى صوته فى التليفون محمّلاً بالتأثر :

ــ عمتنا ماتت ..

رغم أنها لم تكن أصغر أعمامى ، فإن الأشقاء الخمسة سبقوها إلى الرحيل ..

كنت قد حرصت على عيادتها فى أيامها الأخيرة . تحولت ــ بالأعوام التى جاوزت التسعين ــ إلى جسد ضئيل ، وأنفاس مكروشة ، وذاكرة قوية . تمتد أيدينا ، لتساعدها على الوضع الذى تستريح إليه . وتتكلم عن أشخاص ، نتذكرهم بتوالى الأسئلة . تضمن ذلك كله لازمة :

ــ واخد بالك ياوله يا محمد ؟..

يقول أكبر أبنائها إبراهيم جعفر :

ــ لم يعد محمد ولداً ..

تشيح بيدها :

ــ لو بلغ الستين فسيظل هو الولد الذى كنت أحمّمه ..

جلست فى قطار الصباح إلى جوار النافذة ، أتأمل المطلق ، وإن لفنى شعور ـــ كالمفاجأة ـــ بأنى كبرت .

ـــ ٧٦ ـــ

سألنى محمود البدوى ونحن نغادر كازينو " ميرامار ":

ـــ متى نلتقى فى المرة القادمة ؟..

كنت حريصاً على صداقته وأستاذيته . نلتقى فى الكازينو الهادئ بمصر الجديدة . نتكلم ساعة ، أو أكثر فى غير موضوع محدد . يحدثنى فى القصة القصيرة ، وأدب ما بين الحربين العالميتين ، ورحلاته فى العالم ، وانسلاخ إبداعاته الواقعية من رومانسية محمود كامل . وكنت أسأل ويجيب ، تشى كلماته بإحباط ومرارة ، لأنه لم ينل المكانة التى يستحقها . ثم نتفق على موعد لقائنا التالى ، وأعود إلى بيتى القريب ، بينما يفضّل العودة ماشياً ـــ كم كان يحب المشى ! ـــ إلى بيته فى ميدان تريامف ..

قلت :

ـــ مساء الاثنين مناسب ؟..

قال فى لهجة معتذرة :

ـ هذا يوم سماعى للشيخ محمد رفعت ..

نقلتنى العبارة إلى أيامى السكندرية . حرص أبى أن يلزم الشقة مساء كل اثنين ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولا ينزل إلى أصدقائه فى مقهى المهدى اللبان . ينشغل بسماع الشيخ رفعت فى الراديو ، وهو يتلو القرآن . يحلق بالصمت وبإغماض العينين مع الصوت الملائكى ، المفردات حبات نور ، والآيات سلاسل ذهب ، واللحظات نورانية ، علوية ، كأنها هاتف من السماء ، فيوض مقطرة بالروحانية ، تتألق بالشجن والحزن والبهجة والسكينة ، لا صلة لها بصخبنا فى الشقة ، ولا بالأغنيات المنبعثة من فونوغراف قهوة فاروق القريبة ، ولا تلاغط الدكاكين والشوارع أسفل البيت ..

ـ ٧٧ ـ

رحلتى الأولى خارج مصر . أطل على مدينة الجزائر من شرفة فندق الملك إدوار فى الطابق السابع : التلال ، والشوارع الصاعدة ، المتعرجة ، والبيوت التى يتداخل فيها

الأبيض والأزرق ، والبحر المتوسط فى نهاية الأفق ، تتناثر فيه البواخر الضخمة والسفن ذات الأشرعة ..

أعود إلى داخل الحجرة . أفكر فى كتابة رسالة . أسحب ورقة يعلوها اسم الفندق من الدوسيه الجلدى . لا أجد الكلمات التى تحسن التعبير . ألمح جواز السفر على جانب المكتب . أتشاغل بتقليبه . أقرأ الكلمات فى الصفحة الأخيرة : " هذا الجواز وثيقة ذات شأن عظيم يوجب على صاحبه الاحتياط التام حتى لا يقع فى حوزة شخص ليس له حق فى حمله أو استعماله " . أعيد قراءة الكلمات . تتداح فى داخلى مشاعر صاخبة . أستعيد شقاوة أمل ووليد ، ومناقشات أصدقائى عبد الحميد السحار وعبد المنعم الصاوى ونجيب محفوظ وعاطف الغمرى وأحمد عبد الوهاب وصلاح الدين حافظ وبكر درويش ، وبواكير الرسالات السماوية ، وجوامع الحسين والسيدة زينب وأبى العباس وياقوت العرش وعلى تمراز ، ودير سانت كاترين ، ومواقف عبد الناصر ، وموسيقا سيد درويش ، وصوت أم كلثوم ، وتلاوة رفعت ، وعمادة طه حسين ، وروايات محفوظ ، وقصص إدريس ، وقصائد عبد الصبور ، ولوحات جاذبية ، ونحت مختار ،

وعمارة حسن فتحى ، وأفلام أبو سيف ، وأداء فاتن حمامة ، والنيل ، وشاطئ الكورنيش ، وشارع الميدان ، وصيد العصارى فى الميناء الشرقية ، وقهوة فاروق ، وزنقة الستات ، وسوق العيد ، وصور أخرى كثيرة ، متشابكة ، ومتقاطعة ..

دسست جواز السفر داخل جيب الجاكتة الداخلى ، ونزلت إلى من ينتظروننى ..

ـ ٧٨ ـ

اكتفيت بنظرة دهشة ذاهلة ، وأنا أستعيد باعث الملاحظة ..

قال الرجل فى صوت تعمد أن يكون هادئاً :

ــ نحن ديمقراطيون ..

ثم وهو يلوّن صوته :

ــ لذلك نرفض أن يضرب أحدنا سائق سيارته على كتفه ..

هل يراقبون الناس فى الخلاء أيضاً ؟!

أعدت تأمل الرجل بقامته الضئيلة ، وشعره المفلفل ، ووجهه الأسمر ، وأعوامه التى لا تبلغ الثلاثين . هادئ الوجه فلا يبين عن حقيقة مشاعره ، وصوته مجوف ، فيصعب فهم ما يقول ..

هو ـــ كما كتب فى بطاقته ـــ مسئول الإعلام فى حزب الشعب الموريتانى ، وإن تقبّل قيادات الحزب ملاحظاته كأوامر ، وكانوا يبدون الاحترام ..

قدم لى السائق السنغالى السحنة نفسه خارج مطار نواكشوط :

ـــ محمدو تيجانى ..

سبقنى ، وفتح لى باب السيارة . قادها عبر شارع كبير ، مسفلت ، تناثرت ـــ على جانبيه ـــ أبنية صغيرة ولافتات ..

داخلنى قلق للموضع الذى شغله فندق " مرحبا " ذو النسق الأوروبى فى الصحراء الواسعة من حوله ، يخترقها الشارع المسفلت كخط أسود ، قصير ، رفيع ، فى بحر من الرمال ..

كان يصحبنى من الفندق ذى الطابقين إلى مبنى الصداقة الصينية فى وسط نواكشوط . أشبه بقصر صغير من ثلاثة طوابق ، يحيط به الخلاء ، مغاير فى تصميمه وأبهته لبنايات نواكشوط . وكان ينتظرنى بعد انتهاء محاضراتى ليعود بى إلى الفندق ..

بعد أيام ، لم يعد مجرد سائق للسيارة " الرينو " المخصصة لى . تصادقنا ، وتبادلنا المناقشات . أسأله ويجيب ، يتحدث عن العادات والتقاليد ، يشير إلى الأماكن التى يرى أنها تستحق المشاهدة : القصر الجمهورى ، السوق الشعبى ، شاطئ المحيط الأطلسى . تبادلنا الحكايات والنكات . علت ضحكاته لأخطائى فى الفرنسية . اتسمت ملامحه بالجدية وهو ينصحنى بألاّ أتحدث عن المعايب التى ألحظها ، فنظام المختار ولد دادة يتنصت ــ والتعبير له ــ على دقات القلوب فى صدور أصحابها ..

صحبنى إلى شاطئ المحيط ذات مساء . يمثل الهواء الرطب بديلاً لسخونة النهار . قال ما لا أتذكره ، لكننى ضحكت على ما قال ، وربت كتفه بأصابعى ..

هل يراقبون الناس فى الخلاء أيضاً ؟!

لم يكن لدينا ما نفعله . نلقى المحاضرات فى الصباح ، فى مبنى الصداقة الصينية ، ثم نحيا ــ بقية اليوم ــ فراغاً قاتلاً . الحرارة اللاهبة تجعل من النزول إلى المدينة مغامرة صعبة . يشجعنا الإذاعى الراحل محمد فتحى ــ أكبرنا سناً ، وأوفرنا نشاطاً ــ على زيارة السوق الشعبى فى الصباح الباكر . نجول ، ونتأمل ، ونفاصل ، وقد نشترى ما يروقنا . يصر الرجل ــ فى المساء ــ أن نتجه إلى شاطئ الأطلسى . تتبدد سخونة النهار ، وتحل برودة لطيفة منعشة . نسلم لها أجسادنا ، ونحن نتناقش فيما يفد إلى خواطرنا . بقية الوقت نزجيه بالجلوس فى فندق " مرحبا " المطل على شارع جمال عبد الناصر ، ونتناول الطعام فى بطء متعمد . أقمنا صداقة مع عمال الفندق . أربعة من السنغاليين ، نكلمهم بالفرنسية التى لا يجيدون سواها ..

لاحظ محمد فتحى أن رواد الفندق يتعاطون الخمور . بادر ، فطلب نبيذاً ..

مامادو ــ الجرسون السنغالى ذو القامة الفارعة والوجه البرىء الملامح كوجه طفل ــ أظهر دهشته للطلب ..

قال محمد فتحى :

ــ الأوروبيون يتعاطون النبيذ وغيره .. لماذا نحن لا؟..

قال مامادو بلغة عربية صحيحة :

ــ ولا تزر وازرة وزر أخرى ..

تبادلنا نظرات الدهشة . غلبنا الحرج ، فلزمنا الصمت.

ــ ٨٠ ــ

كانت زيارتى إلى الكويت أول زيارة إلى إحدى بلدان الخليج ..

كان الخيال قد رسم صورة الحياة فى المنطقة ، من خلال قراءات ولقاءات بأصدقاء ، ومتابعة لتطورات الأوضاع ، منذ المعاهدات التى وضع الطرف الآخر نهاية لها متى يبيد التراب ويشيب الغراب ، حتى حصول كل دول المنطقة على استقلالها ..

هبطت فى مطار الكويت . فى يدى حقيبة بها ثيابى وأوراقى ، وفى جيبى ٣٥ دولاراً أمريكياً ، هى كل ما كانت الحكومة المصرية توافق للمسافر ــ آنذاك ــ على استبداله ، للإنفاق على مصاريف رحلته ، بصرف النظر عن طبيعة ، أو مدة ، الرحلة ..

كنت قد أعددت نفسى للإقامة أسبوعاً ، أطبع أثناءه جريدة " الوطن " العمانية . توليت مسئولية تحرير الجريدة بإلحاح طيب من صاحبها الشيخ سليمان الطائى . وكان قد طال توقفها ، فتهددت رخصتها بالإلغاء ..

ولأنه لم يكن فى السلطنة سوى المطبعة الحكومية ، فقد كانت الصحف ــ عدا جريدة " عمان " الرسمية ــ تطبع فى الكويت أو بيروت أو القاهرة . ولأن الوقت لم يسعفنى لأخذ تأشيرة دخول إلى السطنة ، فقد أعددت مواد العدد فى القاهرة ، وسافرت إلى الكويت لطباعته هناك ..

سألت موظف الاستقبال بفندق " فينيقيا " :

ــ عندكم برقية من مسقط بأن أقيم فى الفندق لمدة أسبوع ..

قلب الرجل فى الخانات الخشبية وراءه ، وأعاد سؤالى عن اسمى . ثم نفى أن يكون قد وصله من مسقط أى شىء!..

ــ إذن سأقيم على نفقتى ..

ــ جواز سفرك .. والدفع مقدماً ..

أعطيته جواز السفر :

ــ كم ؟..

ذكر رقماً يفوق ما كنت أحمله . كنت أتصور أن ما معى من دولارات مبلغ كبير للغاية . أليس هو " السيد " فى العلانية ، وفى السوق السوداء ؟!.. ولم أدر كيف أتصرف ..

تذكرت صديقى عنبر مال الله مدير تحرير مجلة " عالم الفن " الكويتية . واعتذرت ــ فى التليفون ــ بأنى أيقظته فى وقت متأخر ــ الثانية صباحاً ــ ورويت له ما أعانيه . وابدى عنبر مال الله انزعاجه ، وأعطانى رقم تليفون صديقنا المشترك خالد الريس ، وقال :

ــ اطلبه .. يأتيك حالاً لإنهاء المشكلة !

استطرد مهوناً :

ــ أنت وخالد صديقان .. لن يتأخر فى انقاذك !..

أيقظت خالد الريس من نومه ..

جاءنى صوته ــ فى الطرف المقابل ــ متأثراً ، وإن وضح مغالبته للنوم . ووعد بالقدوم حالاً ..

اقترح نزيل لبنانى تابع ما حدث ــ حلاً مؤقتاً للمشكلة ــ أن يستضيفنى فى غرفته ، ربما تأخر خالد الريس فى المجىء ..

قبل أن أسلم جسدى المتعب للنوم ، أخرج الصديق الطارئ من حقيبة كبيرة زجاجة بها شراب عديم اللون ، وقال لى :

ــ احتفظ بها حتى أطلبها منك !..

قلت محذّراً :

ــ ربما أترك الفندق الليلة ..

ــ سآخذ عنوانك ..

تهللت ــ فى الصباح ــ لرؤية الشيخ سليمان الطائى على باب الفندق ..

قال لى بعفويته الطيبة :

ـــ معذرة يا أستاذ .. تذكرت فى الصباح أنى أرسلت البرقية إلى فندق بريستول ..

رويت للشيخ الطائى أمر مضيفى اللبنانى ، والزجاجة ، وأهمية أن أترك عنوانى ..

تأمل الشيخ الطائى الزجاجة ، وهتف :

ـــ هذه خمر .. وهى ممنوعة هنا .. إنه يريد توريطك مقابلاً لاستضافتك ..

تركت الزجاجة ـــ كما نصحنى الشيخ الطائى ـــ فى استقبال الفندق ، واتجهنا إلى فندق بريستول ..

وفى مساء اليوم التالى ، أتانى صوت خالد الريس فى التليفون ، يرحب بقدومى إلى الكويت . قال إنه أغلق السماعة ، بعد أن تلقى مكالمة الليلة الماضية ، وعاد إلى النوم .

ـــ ٨١ ـــ

العين ، المدينة الصغيرة الجميلة . الشوارع الفسيحة ، والأشجار ، والمساحات الخضراء ، والبنايات التى لا يعلو معظمها عن طابقين ..

تنبهت على صوت الفرامل ، فى الجانب المقابل ، الموازى ..

لولا أنى شاهدت ما حدث ، ما تصورت ، ولا تخيلت أنه يمكن أن يحدث : الشاب الهندى ـــ ميزته بالسحنة ـــ قفز إلى الطريق بين تلاحق السيارات . بدا كأنه تعمد الارتماء بين السيارات . نزل الرجل ذو الدشداشة من السيارة . كان جسده يهتز بالانفعال ، وتقلصت ملامح وجهه ، وتكورت قبضتاه ، واهتزتا ..

ارتمى على الشاب الذى كادت السيارة تصدمه ، ولعلها لامسته . توالت الضربات قاسية ، عنيفة ، لا يشغلها تأوهات الشاب ولا صراخه ..

قال مرافقى :

ـــ لا تستغرب .. هذا المشهد يتكرر كثيراً ..

تكلم عن الهنود الذين يقذفون بأنفسهم أمام السيارات المنطلقة . يقتلون ، فتحصل أسرهم على الديّة ..

قلت فى دهشة :

ـــ يضحى بحياته ؟!

ـــ لن يخسر كثيراً .. فهو ميت فى الحياة ..

أردف وهو ينطلق فى الشارع الفسيح :

ــ الديّة تضمن مستقبلاً لأسرته ..

ــ ٨٢ ــ

القوة الثانية ..

لا أذكر متى قرأت التعبير للمرة الأولى ، لكننى استعدته أمام طاولة التنفيذ فى المطابع العالمية ، وأنا أقاوم إرهاق العمل ستاً وثلاثين ساعة متصلة ..

أغمضت عينى ، وتعمدت الاسترخاء . لا صوت ، ولا حركة ، ولا حتى مجرد التفكير فى شىء محدد . عشر دقائق أو نحوها ، أطيل فيها الشهيق والزفير . يتخلص الجسد من الإرهاق ، فأعود إلى استكمال ما كنت بدأته ..

لجأت إلى القوة الثانية فى أيام كثيرة تالية . أهمل رد الفعل عندما يثقل التعب خطواتى وأنا أسعى للنوم ، ثم وأنا أحاول القيام فى الصباح ، فأخفق ..

ــ ٨٣ ــ

علت الدهشة وجه صاحب جريدة " الوطن " محمد سليمان الطائى . كان يحرص على متابعة الأحداث السياسية فى العالم ..

ــ هل تعتزم المعارضة ضد السادات أن تمارس العمل السياسى تحت الأرض ؟

وأنا أشير إلى الجريدة فى يده :

ــ هذا ما صرح به زعماؤها ..

غالب الطائى تردده :

ــ لا أتخيل كيف ينزل المعارضون تحت الأرض ليقاوموا السلطة ؟!

همست :

ــ ماذا تقصد ؟..

ــ ألم يقولوا إنهم سيمارسون العمل السرى من تحت الأرض ؟..

تهيأت لأن أشرح له معنى الكلمات . ثم فضلت أن أصمت . تذكرت ما قاله لى صديقى الراحل محمد أمين عبد الله ــ وكان يصر على ارتداء البدلة ــ : إن الدشداشة تفرض نفسها حتى على تفكير البشر !..

ـ ٨٤ ـ

زارنى دون موعد ..

شاب فى حوالى العشرين . يرتدى دشداشة الإمارات . تختلف قليلاً عن دشاديش بقية دول الخليج ، وإن اختلفت ـ إلى حد كبير ـ عن الدشداشة العمانية ..

كان المكيف معطلاً فى حجرة المكتب ، والمروحة تعانى الدوران فى جو ساخن ، والنافذة المغلقة كتمت أصوات الطريق الخالى من المارة أصلاً ، والصمت السادر يعمقه الإيقاع الرتيب لأجهزة التيكرز ، والتليفزيون مضاء دون صوت ..

قدم لى نفسه :

ـ فلان الفلانى .. صحفى من دولة الإمارات ..

فاجأنى بأنه قرأ لى . أبدى ملاحظات ، وطلب تعقيبى عليها . أجرى معى حواراً لجريدته عن الحياة الأدبية فى مصر ، وفى دول الخليج والعالم العربى ..

نقل ما قلته بحيادية ، ولم يعلق ..

قبل أن يغادر المكتب ، دس فى يدى ورقة مطوية ، ومضى ..

فاجأنى التصرف ، فلم أدر هل أدعوه إلى التريث ، أو أودعه بالتحية ، أو أفض الورقة ؟

" نحن مجموعة من شباب الإمارات وعمان . نعد لثورة ضد الأنظمة القائمة .. هل تنضم إلينا ؟ " ..

لم أكن مشغولاً بالأوضاع السياسية فى المنطقة . كنت أؤدى عملى الصحفى بأسلوب المحترف . أكتب فى القضايا الثقافية ، وأترك قضايا الخليج السياسية لأبنائه ..

احتوتنى حالة من القلق ، وربما من الخوف : هل هى دعوة حقيقية ، أو أن الرجل مدسوس ؟ وما التصرف الذى يجدر بى أن أفعله ؟..

بعد ليلة متعبة ، قررت تناسى ما حدث تماماً ، كأنه لم يكن .

— ٨٥ —

هل أجن ؟..

ألقيت السؤال دون تدبّر إجابة له . بدت الضغوط أقوى من أن أتحملها ، ضغوط قاسية ، باطشة ، لو أنى حاولت مواجهتها فسيؤذى " الفعل " من أحبهم . يرتسم فى الذهن ــ دوماً ــ طفلاى أمل ووليد ..

حاصرنى السخف والضيق واللا جدوى ..

ركبت السيارة فى عز الظهر . أغلقت النوافذ ، وأبطلت المكيف ، وانطلقت فى شوارع مسقط . لا مارة ، ولا صوت سوى هدير المكيفات . أسلم نفسى للحرارة ، والرطوبة العالية ، والعرق . لا يجد الأنف ما يتنفسه .. فأختنق .

ــ ٨٦ ــ

زارتنى فى مكتبى بجريدة " الوطن " بصحبة صديقة لى خبيرة فى وزارة الشئون الاجتماعية العمانية ..

اجتذبنى إليها ما لم أستطع تحديده على نحو مؤكد . حين تعرفت إلى نجيب محفوظ ــ للمرة الأولى ــ فى " خان الخليلى " ، قلت بلا تردد : هذا هو الروائى الذى يجب أن أحتفى به . وتعرفت إلى يوسف إدريس ويوسف الشارونى

ـــ فى تباين إبداعاتهما ـــ فطالعنى حض على الدهشة ، والتأمل ، واستفزاز للمبدع فى داخلى . أيقنت ـــ من القراءة الأولى ـــ أن نجيب محفوظ هو كاتب الرواية العربية الأقرب إلى نفسى ، وأن إدريس والشارونى هما كاتبا القصة القصيرة العربية الأقرب إلى نفسى ، وأيقنت أن زينب العسال ـــ حين رأيتها للمرة الأولى ـــ ستدخل حياتى ، وتظل فيها . لحظة الاكتشاف المغايرة ، لا تتصل بما سبق ، وتعد فى الآتى برؤى باهرة . النداء السحرى يفتح المغارة المغلقة . اللقاء المفاجأة ، لم تتهيأ له ، ولا تصورت نفسك طرفاً فيه ، وإن تيقظ الإحساس فى داخلك بأنك كنت ترجوه ، وتترقبه ..

قلت لصديقى حسين مرسى مدير الإعلانات بالجريدة :

ـــ هذه الفتاة ستزور الجريدة مرات تالية ..

سأل بالدهشة :

ـــ لماذا ؟..

أغمضت عينىّ ، كأنى أجمع نفسى المبعثرة :

ـــ لا تطلب تفسيراً .. لكنها غيّرت فى داخلى أشياء ..

كنت أعانى ظروفاً أسرية قاسية . زارتنى أحلام وكوابيس وخواطر مدمّرة . بدا الأفق مثقلاً بالسحب السوداء المتكاثفة . تعالت الأمواج ، وتوالت ، فغاب الأفق . لم يعد ــ فى كل الاتجاهات ــ ما يشى بالرسو ..

لما قالت زينب العسال إنها مدرسة للغة العربية فى مدرسة للبنات ، عرضت عليها أن تعمل ــ ساعتين كل يوم ــ فى الجريدة . صدمت سمعها كلمة " الأرشيف " ، فاعتذرت . أسرفت فى التأكيد أن الأرشيف هو البداية والأساس فى العمل الصحفى . لجأت إلى تزويقات ورتوش وعبارات باهرة . كنت أريد أن تعود إلى " الوطن " ..

تفاقمت ــ فى أثناء عملها ــ مشكلاتى الأسرية . تساقطت من أذنى النصائح ، والوصايا التى لا تدرك حقيقة ما أعانيه ، والآراء الباردة . بدا الطلاق منفذاً وحيداً ..

تبينت فى كلمات زينب تفهماً لما أعانيه . شدّنى حياد آرائها وتصرفاتها . تجيب عن أسئلة خنقنى حصارها . تهمل التفصيلات ، وما قد يبدو شخصيّا ، أو سرّا . ثم تنصرف إلى عملها فى " الأرشيف " الذى خلقته خلقاً ..

بدت لحيرتى منفذاً وحيداً ، مقابلاً ..

وتزوجتها .

ـ ٨٧ ـ

أعدت قراءة الخبر :

" منظمة العفو الدولية تطلب إيقاف عمليات التعذيب التى يعانيها خليل بن نحوى رئيس تحرير " الشعب " الموريتانية على يد السلطة الحاكمة " ..

خليل بن نحوى ؟..

رشحته من بين طلابى فى دورة تدريب الإعلاميين الموريتانيين رئيساً لتحرير " الشعب " ، أولى الصحف فى تاريخ نواكشوط ..

كان قد أخلى ذهنه ومشاعره لهموم بلاده ، حاضرها ومستقبلها واستشرافات المستقبل ..

أداعبه :

ــ أنت " شوفينى " . .

يقول من بين ابتسامة هادئة :

ــ أنا أحب وطنى الكبير لأنى أحب موطنى موريتانيا ..

كان يبرر حتى " الدراعة " التى لا تتناسب مع حرارة الجو . وكان يحب الصحافة والشعر والقصة والصحراء والخيمة وتقاليد البيئة ..

خليل بن نحوى .. ماذا جرى ؟..

ـ ٨٨ ـ

كنت أعد نفسى لعملية جراحية . سألنى الطبيب : هل معدتك حساسة ؟.. استدعيت حادثة قديمة : ألحت شقيقتى فى أن أركب معها المرجيحة بسوق العيد . لم تكد المرجيحة تلف دورتها الأولى فى الهواء ، حتى تصاعد الغثيان إلى فمى ، وتقيأت بالفعل . تناثر القىء فى الفراغ ، وعلى الواقفين فى أسفل ..

أدرك أبى حساسية معدتى ، عندما تقيأت فى الأوتوبيس من الإسكندرية إلى دمنهور . تذكرت شقيقتى حادثة المرجيحة ، فاستأذن أبى السائق لأجلس بجوار النافذة الأمامية ..

اعتدت ــ فى المرات التالية ــ أن أركب الأوتوبيس ، فأمضى إلى النافذة بجوار السائق ، حتى لا يثير اهتزاز الأوتوبيس حساسية معدتى ، فأتقيأ ..

ــ ٨٩ ــ

لمحته على ناصية الطريق ..

فاروق حلمى : قامته الطويلة ، جسمه الممتلئ ، شعره الأبيض المنكوش ، خطواته القافزة ..

أبطأت من سرعة السيارة ، وملت ناحية الرصيف ، واقتربت من النافذة اليمنى للمناداة عليه ..

لم يكن هو . تذكرت أنه مات منذ أسابيع ..

زدت من سرعة السيارة ..

ــ ٩٠ ــ

ملت بسيارتى من الهضبة التى علاها مستشفى المقاولون العرب . لم يلطف قدوم الليل من حر أغسطس ، ولا اجتذبتنى كلمات المحيطين بى ..

اقترحت فى الليلة السابقة ــ قبل أن نغادر المستشفى ــ أن نحتفل ــ فى اليوم التالى ــ بعيد ميلاد أخى الأكبر . كان قد مضى أشهر على نزوله المستشفى مريضاً بسرطان الكبد . بدت النهاية ماثلة فى اقتصار الأدوية على المسكنات ، ولعله كان يتبينها هو أيضاً ، لكننا تعلقنا بقشة الأمل مثلما تعلق بها ..

قلت لزوجتى وأنا أتأمل علب التورته والجاتوه فى كرسى السيارة الخلفى :

ــ أشعر أن " على " سيموت اليوم ..

شوحت بيدها :

ــ تف من بقك ..

وداخل صوتها تهدج :

ــ واضح أن صحته تتحسن ..

سبقنا الأهل إلى تزيين الحجرة بالأوراق الملونة والبالونات ، وغنى الجميع هابى داى تو على .. ثم حطت الحيرة فى صراخ أخى المفاجئ : أنا أموت !..

أظهر الخوف من شىء لم نتبينه ، واستغاث لنأتى بأطباء كبار ، وحدد ــ لا أدرى لماذا ــ اسمى حمدى السيد ومجدى يعقوب ..

وضعنا قناع الأوكسجين على أنفه ، فنزعه ، وواصل الصراخ . أصابه ما يشبه الهستيريا ، فهو يتلوى فى السرير ، ويضرب بيديه وقدميه ، ويحاول القيام فنعيده . يهتف : ارفعونى !.. نتبادل النظرات المتسائلة ، والمشفقة ، ونستغيث بالممرضات ، وبأنفسنا ..

هدأ صوته فبدا كالهمس : أنا أموت !.. ثم تلا الشهادتين ، دون أن يذكّره أحد ، وصمت ، وإن ظلت عيناه مبحلقتين فى الفراغ ..

طلب الطبيب الشاب أن نخلى الحجرة ..

مال على طاولة فى الممر الطويل ، وكتب ما لم أستطع قراءته ..

دهمنى ارتباك :

ــ هل حالته خطيرة ؟..

قال فى لهجة باترة :

ــ انتهى .. مات !

تركنا علب الجاتوه والتورته دون أن تفض . وظلت الأوراق الملونة والبالونات فى تقاطعاتها بين سقف الحجرة وجدرانها . بدا ما حدث كأنه لا يتصل بى ، لا مشاعر من أى نوع ، لا حزن ولا أسى ولا خوف ، مشهد اكتفيت فيه بالمتابعة الهادئة ، الباردة ..

ما كادت السيارة تمضى فى طريق الأوتوستراد ، حتى انعزلت عن المحيطين بى ، وعن الطريق نفسه ، والآلية ــ هل ثمة تعبير أدق ؟! ــ تمضى بالسيارة إلى البيت فى مصر الجديدة . ملايين الذكريات المشتركة والملامح والقسمات والكلمات والتصرفات والمنمنمات والتفاصيل الصغيرة ، يصنعها ــ مختلطة ومتشابكة ــ توالى الأعوام ..

تنبهت على تحذير زوجتى :

ــ انت سايق غلط ..

ثم فى نبرة مترفقة :

ــ كلنا حا نموت !

ملت إلى جانب الطريق ..

وأخليت لدمعى طريقه .

— ٩١ —

النسائم المحملة بروائح الملح واليود والطحالب والأعشاب ، تلامس أنفى فى مكان ما ، فى لحظة ما ، على شاطئ الأطلسى ، خور فكان ، شاطئ الكورنيش بمطرح ، فوق تلال الجزائر ، حى البوسعيد التونسى .. أستعيد الرائحة نفسها ، على شاطئ الكورنيش فى المينا الشرقية ، أو فى الأنفوشى ..

أغمض العينين بعفوية ، أحيا فى المكان الذى أحبه ..

— ٩٢ —

قال إنه اختار الليل موعداً للسفر ، فلا تضايقنا حرارة النهار . فى الليل يكون الجو ألطف ..

قلت : أنا أحب السفر فى وضوح النهار . سفر الليل يحاصرنى فى العربة التى أستقلها . لا تجاوزها عيناى ولا حركتى . السفر فى النهار يضعنى فى قلب الحياة المتسعة عبر الآفاق : البشر والشوارع والبيوت والدكاكين والمقاهى والحقول والنهر والكبارى . أحب أن أحيا تفصيلات الحياة اليومية ..

أهملت البحث عن تاكسى ..

فضلت السير ــ متأملاً ــ من ميدان محطة الإسكندرية باتساعه وزحامه والشوارع الكثيرة المتفرعة منه ..

خلفت مبنى هيئة التليفونات إلى شارع شريف ذى الطابع الأوروبى ، النوافذ الخشبية العالية ، والشرفات ذات القواعد الرخامية المتجاورة ، والدعامات على شكل مقرنصات وتماثيل لبشر وحيوان من الرخام أو الجبس ، والرسومات والزخارف الجصية والنقوش والثقوب الطولية ..

طالعنى ميدان المنشية . إلى يسارى ساحة ، كان يشغلها مبنى البورصة . واجه عبد الناصر فى شرفته رصاصات محاولة الاغتيال ، وأعلن ــ فى الشرفة نفسها ــ قرار تأميم قناة السويس . ملامح الميدان المميزة : تمثال محمد على ، الكنيسة الإنجيلية ، النخيل الملكى ، الحدائق الصغيرة ذات الأسوار ، مكتبة دار المعارف ، دكاكين الطعام والملابس والبضائع المنزلية والمقاهى ، أنفاس البحر

تترامى عبر طريق الكورنيش ، والشوارع الجانبية المفضية إلى قلب المدينة ..

اتجهت إلى شارع فرنسا ــ كم يبدو ضيقاً بالقياس إلى تصور أيام الطفولة والصبا ! ــ وكالة الأوقاف ، ومحال الصاغة ، وجامع سيدى خضر ، وجامع تربانة ، ومستوصف الصحة ــ خضت فى عام ١٩٤٧ زحاماً لأحصل فيه على طعم الكوليرا ــ مكتب التليفون والتلغراف . أتذكر البرقية التى كلفنى أبى بإرسالها إلى أهل أمى فى دمنهور : خديجة توفيت ، البناية التى كانت ــ قبل هدمها ــ كتّاب الشيخ أحمد . ألحقتنى أمى به للتخلص من شقاوتى ، وإن كنت ــ فيما روت لى ــ أعود قبل أن ينتصف النهار ، لأطلب ساندوتش فول . كان الفول خير ما أحبه ــ ومازلت ــ من الطعام ..

اقتربت من شارع إسماعيل صبرى . بالتحديد ، البيت الذى يطل على الشارع والشارعين المتقاطعين : رأس التين وفرنسا ، ويطل سطحه على الميناءين الشرقى والغربى وساحل الأنفوشى ..

استعدت حكايات السيد الرويعى فى دكانه المقابل للبيت . يهلل لرؤيتى ، ويترحم على أبوى ، ويسأل فى تأثر : أين يذهب الجميع ؟!.. أعددت فى ذهنى أسئلة ، تشغلنى أجوبتها ، عن الذين رحلوا بالسفر ، وبالموت ، وعن الموالد وسوق العيد فى ميدان الخمس فوانيس وخطب الشيخ عبد الحفيظ إمام جامع سيدى على تمراز قبل عشرين عاماً ، وعن التفصيلات الصغيرة التى أضافت إلى صورة الحياة فى الحى ، وحذفت منها ..

سألت العامل فى حلوانى الطيبين المجاور عن الستارة الحديدية المسدلة على باب دكان الرويعى ..

مص شفتيه :

ــ البقية فى حياتك !

السيد الرويعى هو آخر من يعرفنى من حرفيى الحى وباعته . وعت طفولتى عليه ، وحاك لذكور أسرتى ملابس العيد ، وجلس إلى أبى فى مقهى المهدى أسفل البيت . رحلت إلى القاهرة ، بينما اتصلت حياته فى المكان ، فلديه ما يرويه ..

عانيت الارتباك ، فلا أحد يعرفنى ..

لما تابع عامل حلوانى الطيبين نظراتى إلى شقة الطابق الثالث ، حذرنى بلهجة يخالطها ضيق :

ــ خليك معايا يا أستاذ !

قلت كأنى أدفع تهمة :

ــ هذه كانت شقتى !..

ملت إلى شارع فرنسا ..

فقدت الرغبة فى التأمل والتذكر والاستعادة ..

نفضت رأسى بالسؤال : هل أعود ثانية ؟..

ــ ٩٤ ــ

الشوارع من محطة السكة الحديد إلى قلب المدينة كما أتذكر دمنهور حين قدومى إليها قبل عشرين عاماً . أطيل تأمل البنايات القديمة ذات الأسقف العالية من الحجارة البيضاء ، والنوافذ الخشبية المستطيلة ، والنقوش ، والمقرنصات ، والتماثيل الصغيرة ..

تبطئ خطواتى حتى تتوقف ، وأعاود التأمل . أستعيد مشهداً ، أو أحاول التثبت مما تسعفنى به الذاكرة . تفصلنى المشاعر الصاخبة ، الموارة ، عن حركة الطريق من حولى

. أحيا فى جزر بعيدة ، وأصداء ، وملامح واضحة وباهتة ، وما يشبه الأطياف ..

قالت زوجتى :

ــ هل تبحث عن شئ ؟

قلت :

ــ أبداً .. تهمنى البنايات القديمة ..

رفعت حاجبيها فى دهشة :

ــ لماذا ؟

ــ أخمن عمر البنايات التى شيدت قبل ١٩٤٧

أضفت للدهشة المتسائلة فى عينيها :

ــ ماتت أمى فى ذلك العام .. أنا أستعيد ما كانت تقع عليه عيناها وهى تمضى من المحطة إلى أبو الريش لزيارة أهلها !

ــ ٩٥ ــ

رضخت ــ أخيراً ــ لإصرار ابنى وليد ..

جلست أمام " الكمبيوتر " ، أتعلم كيف أستخدمه . تحدث وليد عن الهارد ديسك والسوفت وير والرام والكى

بورد والماوس والتاور والميجا بايت والجيجا بايت والسكانر والطبّاعة ، ومفردات وتعبيرات أخرى كثيرة ، تشابكت فى ذهنى ، واختلطت ..

رجوته أن يعيدها ، فأعادها فى كلمات سريعة ، مندهشة : كيف لا أفهم هذه الخطوات السهلة ؟..

لم أفهم ، وأعدت رجائى بأن يعيدها ..

حدجنى بنظرة يأس :

ـــ يظهر ما فيش فايدة ..

أدركت أنى من جيل مختلف ..

ـــ ٩٦ ـــ

فتحت باب القفص . أخذت درج الطعام لأعيد ملأه . تبينت ـــ وأنا أعيد الدرج إلى موضعه ـــ أنى نسيت الباب مفتوحاً .. وكان العصفور يلتقط البقايا من أرض القفص ..

تساءلت : لماذا لم يحاول الفرار ؟..

ـــ ٩٧ ـــ

كنت قريباً من أمى وأخى حين ماتا . استغاثا بمن لم أتبينه ، ورحلا . استمعت إلى روايات عن ملك الموت الذى يظهر لمن حان أجلهم . ما الهيئة التى سيبدو عليها حين يلتقى بى ؟.. هل يرتدى زياً مما يرتديه البشر العاديون ، بدلة ، أو جلباباً ، أو دشداشة مما ألف ارتداءها أهل الجزيرة العربية ؟ أو أنه سيواجهنى فى هيئته الحقيقية ملكاً له جناحان ونور يشع من جسده ؟ أو لعله سيبدو فى الهيئة التى اختارها له فنان قديم ، لا أعرفه : هيكل عظمى يحمل منجلاً ؟ أو أن الومضة تأتى مباغتة ، فيحل ظلام دائم وسكون ، يسبقهما الانشغال بمعاناة تقصر أو تطول ؟..

تجربة العملية الجراحية التى أجريت لى منذ سنوات ، والقراءات التى سبقت التجربة فى روايتى التسجيلية " الحياة ثانية " صادقتنى لفكرة الموت . أثق أننا يجب أن نموت ، لأننا يجب أن نموت ..

لأن الحياة تَواصُل وتخلّق وابْتعاث وتجدّد . قررت أن أظل أقرأ وأكتب وأتأمل وأمارس الحياة ..

ما عدا ذلك ، فلكل شىء أوانه !

الإسكندرية ــ محمد جبريل ١٩٩٩/١/٢٨

مؤلفات محمد جبريل

١ ــ تلك اللحظة (مجموعة قصصية) ١٩٧٠ ــ نفد

٢ ــ الأسوار (رواية) ١٩٧٢ هيئة الكتاب ــ الطبعة الثانية ١٩٩٩ مكتبة مصر

٣ ــ مصر فى قصص كتابها المعاصرين (دراسة) الكتاب الحائز على جائزة الدولة ــ ١٩٧٣ هيئة الكتاب

٤ ــ انعكاسات الأيام العصيبة (مجموعة قصصية) ١٩٨١ مكتبة مصر ــ ترجمت بعض قصصها إلى الفرنسية

٥ ــ إمام آخر الزمان (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٤ مكتبة مصر ــ الطبعة الثانية ١٩٩٩ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٦ ــ مصر .. من يريدها بسوء (مقالات) ١٩٨٦ دار الحرية

٧ ــ هل (مجموعة قصصية) ١٩٨٧ هيئة الكتاب ــ ترجمت بعض قصصها إلى الإنجليزية والماليزية

٨ ــ من أوراق أبى الطيب المتنبى (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٨ هيئة الكتاب ــ الطبعة الثانية ١٩٩٥ مكتبة مصر

٩ ــ قاضى البهار ينزل البحر (رواية) ١٩٨٩ هيئة الكتاب

١٠ ــ الصهبة (رواية) ١٩٩٠ هيئة الكتاب

١١ ــ قلعة الجبل (رواية) ١٩٩١ روايات الهلال

١٢ ــ النظر إلى أسفل (رواية) ١٩٩٢ ــ هيئة الكتاب

١٣ ــ الخليج (رواية) ١٩٩٣ هيئة الكتاب

١٤ ــ نجيب محفوظ .. صداقة جيلين (دراسة) ١٩٩٣ هيئة قصور الثقافة

١٥ ــ اعترافات سيد القرية (رواية) ١٩٩٤ روايات الهلال

١٦ ــ السحار .. رحلة إلى السيرة النبوية (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر

١٧ ــ آباء الستينيات .. جيل لجنة النشر للجامعيين (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر

١٨ ــ قراءة فى شخصيات مصرية (مقالات) ١٩٩٥ هيئة قصور الثقافة

١٩ ــ زهرة الصباح (رواية) ١٩٩٥ هيئة الكتاب

٢٠ ــ الشاطئ الآخر (رواية) ١٩٩٦ مكتبة مصر ــ ترجمت إلى الإنجليزية

٢١ ــ حكايات وهوامش من حياة المبتلى (مجموعة قصصية) ١٩٩٦ هيئة قصور الثقافة

٢٢ ــ سوق العيد (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب

٢٣ ــ انفراجة الباب (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب ــ ترجمت بعض قصصها إلى الماليزية

٢٤ ــ أبو العباس ــ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر

٢٥ ــ ياقوت العرش ــ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر

٢٦ ــ البوصيرى ــ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر

٢٧ ــ على تمراز ــ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر

٢٨ ــ مصر المكان (دراسة فى القصة والرواية) ١٩٩٨ هيئة قصور الثقافة ــ ٢٠٠٠ المجلس الأعلى للثقافة

٢٩ ــ حكايات عن جزيرة فاروس (سيرة ذاتية) ١٩٩٨ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٣٠ ــ الحياة ثانية (رواية تسجيلية) ١٩٩٩ ــ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٣١ ــ حارة اليهود (مختارات قصصية) ١٩٩٩ ــ هيئة قصور الثقافة

٣٢ ــ المينا الشرقية (رواية) ٢٠٠٠ ــ مركز الحضارة العربية

٣٣ ــ رسالة السهم الذى لا يخطئ (مجموعة قصصية) ٢٠٠٠ ــ مكتبة مصر

٣٤ ــ بوح الأسرار (رواية) ٢٠٠٠ ــ روايات الهلال

كتب عن المؤلف

١ ـــ العالم القصصى عند محمد جبريل ـــ مجموعة باحثين ـــ مكتب منيرفا بالزقازيق ١٩٨٣

٢ ـــ دراسات فى أدب محمد جبريل ـــ مجموعة باحثين ـــ مكتب منيرفا بالزقازيق ١٩٨٤

٣ ـــ البطل المطارد فى روايات محمد جبريل ـــ حسين على محمد (دكتور) ـــ دار الوفاء بالإسكندرية ١٩٩٩

٤ ـــ فسيفساء نقدية ـــ تأملات فى العالم الروائى لمحمد جبريل ـــ ماهر شفيق فريد (دكتور) ـــ دار الوفاء بالإسكندرية ١٩٩٩

٥ ـــ محمد جبريل .. موال سكندرى ـــ فريد معوض وعدد من الأدباء والنقاد ـــ كتاب سمول١٩٩٩

٦ ـــ استلهام التراث فى روايات محمد جبريل ـــ سعيد الطواب (دكتور) ـــ دار السندباد للنشر والتوزيع١٩٩٩